

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فيقول رب العزة والجلال في كتابه الكريم : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:21] .

قال الحافظ ابن كثير –رَحِمَهُ ٱللَّهُ–في تفسيره لهذه الآية: هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في أقواله وأفعاله وأحواله.

ويمكن التأسي برسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في أقواله وأفعاله وأحواله بدراسة سيرته، والوقوف على مراحل حياته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ--، ومن أجل ذلك تسابق علماء السلف منذ وقت مبكر على التأليف والتصنيف في سيرة النبي – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وهذا الكتاب المختصر الذي نقدمه لطلابنا دراسة وافية لمراحل سيرته – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من بعثته – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى وفاته – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأسلوب ميسر وسرد مُبسّط.

وقد قسم الكتاب إلى وحدتين، تتناول الأولى العهد المكي وما فيه من احداث مهمة قبيل بعثته وما بعدها وما جرى في هذا العهد من أحداث، والذي استمر قرابة الثلاثة عشر عاماً يدعو فيها رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك.

والوحدة الثانية تتناول العهد المدني وما فيه من خصائص وأحداث مهمة تناولت هجرته – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – للمدينة بعد اشتداد أذى قومه له، وما فيها من فوائد وما تخللها من أحداث تاريخية حاسمة.

سائلين الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يحيينا على سنته وأن يميتنا عليها، وأن يجعلنا من المتأسين به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ--وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، إنه سميع عليم.

الوحدة الأولى

- (العهد المكي)
- (التعريف بالسيرة وأهمية دراستها ومصادرها) :
- (محمد – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نسبه ، ونشأته ، وأحواله قبل النبوة)
- (العهد المدني)
- (مقدمات الهجرة النبوية):
- (وصول النبي – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – للمدينة وأهم أعماله فيها)

الوحدة الأولى

التعريف بالسيرة وأهمية دراستها ومصادرها

فوائد وأهمية دراسة السيرة النبوية

التعريف بالسيرة :

السيرة **لغة** : طريقة وهيأة: قال تعالى : ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه] .

السيرة اصطلاحاً: معرفة جميع أحوال النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على التفصيل منذ ولادته إلى وفاته وما يتصل بذلك من مغازيه وفتوحاته وشمائله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

إنَّ دراسة السيرة النبوية العطرة تعد غذاء للقلوب ، وبهجة للنفوس ، وسعادة ولذة وقرة عين ، بل إنها جزء من دين الله - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعبادة يتقرب بها إلى الله؛ لأن حياة نبينا الكريم – صلوات الله وسلامه عليه – حياة بذل وعطاء وصبر ومصابرة وجد واجتهاد ودأب في تحقيق العبودية لله - -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والدعوة إلى دينه -عَزَّ وَجَلَّ-، وفي دراسة السيرة فوائد عظيمة جداً ومنافع متعددة أذكِّر بشيءٍ منها شحذًا للهمم للصبر والمواصلة والعناية بدراسة سيرة نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ؛ فمن هذه الفوائد:

أن نبينا - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أسوة للعالمين وقدوة لهم في العقيدة والعبادة والأخلاق كما قال الله- -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: 21] ، وتحقيق هذا الائتساء به وسلوك هديه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - متوقف على معرفة سيرته وهديه الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- .

الأمر الثاني : أن سيرة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ--وهديه القويم يُعَدُّ ميزاناً توزن في ضوءه الأعمال ، فما كان منها موافقاً لهديه وسلوكه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ--فهو المقبول ، وما كان منها ليس موافقاً لهديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ--ولسلوكه فهو المردود ، وفي هذا المعنى يقول سفيان بن عيينة -

رَحِمَهُ ٱللَّهُ -فيما روى الخطيب البغدادي في مقدمة كتابه العظيم **[الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع]** : « إن رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - هو الميزان الأكبر ؛ فعليه تعرض الأعمال ، على خُلقه وسيرته وهديه ، فما وافقها فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل.

الأمر الثالث : في دراسة سيرة النبي الكريم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-- عون على فهم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ- -، لأن حياته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-- كلها تطبيق للقرآن وعمل به ، ولما سُئلت أم المؤمنين عائشة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- عن خُلقه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-- قالت : **كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ،** وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ **[القلم]** والمراد بالخُلق هنا : الدين ؛ أي على دين كامل وتام ، فهو عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-- قد قام أتم قيام بأوامر القرآن فعلاً لها ، ونواهي القرآن اجتناباً وتركاً، وآداب القرآن والأخلاق التي ذُكرت فيه عملاً وتطبيقاً ؛ فحياته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-- وسيرته عملٌ تام وتطبيق كامل لكتاب الله --تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ، فمن خلال دراسة السيرة يكون في ذلك عون للمسلم على فهم كتاب الله -عَزَّوَجَلَّ- ، وعندما تطالع كتب التفسير ولاسيما أسباب النزول تجد الارتباط بين نزول آيات القرآن الكريم والسيرة ووقائعها ؛ مما يتبين به الحاجة لدراسة سيرة النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - في فقه كتاب الله جل وعلا.

الأمر الرابع : أن في دراسة سيرته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-- تعميقاً لمحبته ، وقد قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ--: « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» **[متفق عليه]** ، وجاء في صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-قال : « قلت يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي» ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - : « **لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**» ، فقال له عمر: « فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي»، فقال النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - : « **الْآنَ يَا عُمَرُ** » ، فتعميق هذه المحبة وتمكينها وتقويتها في القلب يحتاج من العبد إلى دراسة لسيرة النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-- ومعرفة بأخباره العطرة وحياته المباركة صلوات الله وسلامه عليه ، ليزداد حباً للنبي الكريم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-- ، وقد كان في حياته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-- يأتي إليه الرجل وليس على وجه الأرض أبغض إليه منه ،

فما أن يراه ويرى سيرته وهديه وسلوكه إلا ويتحول من ساعته وليس على وجه الأرض أحب إليه منه، كما قال ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة حين أسلم : «يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى وَجْهُ الْأَرْضِ أَبْغَض إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ»[1]. فهي سيرة عامرة بالرحمة ، والرفق ، وطيب المعاملة ، وحسن الأدب والخُلق ، قال تعالى:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمـــران:159] ، وإذا أكـــرم الله -- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبده بمحبة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- محبة صادقة ساقته هذه المحبة إلى كل فضيلة ، وكانت عوناً له على تحقيق الاتباع لهذا الرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- ومنهاجه القويم ، كما كانت حال الصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ-ومن اتبعهم بإحسان.

الأمر الخامس :من فوائد دراسة سيرة نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- : أنها باب من أبواب زيادة الإيمان وتقويته ، وقد قال الله تعالى :﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ **[المؤمنون]**، فمعرفة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- ومعرفة هديه وآدابه وأخلاقه موجبةٌ لمن حصلت له هذه المعرفة للإيمان إذا كان لم يؤمن ، وموجبة لزيادة الإيمان في حق المؤمن ، وكم من أقوام دخلوا في دين الله - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من خلال وقوفهم على سيرة النبي الكريم وآدابه الكاملة وأخلاقه الفاضلة ومعاملاته العظيمة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ--، روى الإمام أحمد عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَتَى قَوْمَهُ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ رَجُلٍ لَا يَخَافُ الْفَاقَةَ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَجِيءُ إِلَيْهِ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا فَمَا يُمْسِي حَتَّى يَكُونَ دِينُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا.

الأمر السادس : أنَّ في دراسة السيرة عونا لفهم الدين كله، عقيدةً وعبادةً وخُلقا ، لأنَّ حياته -كما أسلفت- حياة عمل لهذا الدين ، قياماً به ودعوةً إليه وتضحية وجِدّاً واجتهاداً وجهاداً لنصرة هذه العقيدة التي هي رأس الأمر وأساس دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ--، ومن يطالع

---

[1] رواه الإمام أحمد.

سيرته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- يجد أنه أول ما بدأ في دعوته بدأ بالدعوة إلى العقيدة والتوحيد ، ومضى على ذلك سنوات عديدة من حياته لا يدعو إلا للعقيدة والتوحيد ،كما أمره الله - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك ، ثم بعد ذلك جاءت الفرائض والأوامر شيئاً فشيئاً ، ففي دراسة السيرة دراسة للعقيدة ، ودراسة لمراحل التشريع ، ودراسة لنزول الفرائض والعبادات ، ومعرفة بالتطبيق العملي لدين الله --تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عقيدةً وعبادةً وخُلقا ، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في **[مختصر السيرة ص 21]** : اعرف ما قصّه أهل العلم من أخبار النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقومه وما جرى له معهم في مكة وما جرى له في المدينة ، واعرف ما قص العلماء عن أصحابه وأحوالهم وأعمالهم، لعلك أن تعرف الإسلام والكفر ؛ فإن الإسلام اليوم غريب وأكثر الناس لا يميز بينه وبين الكفر ، وذلك هو الهلاك الذي لا يرجى معه فلاح» .

الأمر السابع : أن السيرة فيها تعليم للنهج الصحيح في الدعوة إلى الله على بصيرة، والدعاة إلى الله - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقاً هم أهل الدراية بهديه ونهجه وسيرته - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وقد قال الله تعالى :﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ **[يوسف:108]** ، فالدعوة إلى الله -جَلَّ وَعَلَا-على بصيرة لابد فيها من معرفة هديه ونهجه صلوات الله وسلامه عليه في الدعوة إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- ، والسيرة النبوية مشتملة على بيان هديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- في الدعوة من حيث بم بدأ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- ، ومن حيث طريقته وأسلوبه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الدعوة إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- ، ومن حيث أخلاقه وآدابه وتعاملاته ولين جانبه ورفقه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، إلى غير ذلك من الأمور التي هي مقوّمات للدعوة إلى الله --تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ .

الأمر الثامن : أن سيرة النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نفسها آية من آيات نبوته ، وعلَمٌ من أعلام صدق ما جاء به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- ، وهي أكبر عونٍ على تصديقه والإيمان به - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فمن طرق معرفة صدق الرسول - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وصدق ما جاء به معرفة سيرته ، وإلى ماذا يدعو ؟ وكيف تكون معاملته للناس ؟ وما هو هديه ؟ وما هي أخلاقه ؟ وما هي تعاملاتهُ ؟ ومن يطالع السيرة يجد حياةً عطرة عامرة بالخير والعطاء والخُلق والأدب

والكرم والسخاء ، إلى غير ذلك من الصفات الفاضلة والآداب الكاملة الشاهدة بصدقه، حتى شهد كثيرٌ من أعدائه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بصدقه لكمال سيرته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- قبل أن يبعث وبعد بعثه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

الأمر التاسع : أن دراسة سيرة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- باب عظيم مبارك من أبواب السعادة ، بل إن السعادة متوقفة على معرفة هدي النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فلا سعادة إلا بسلوك نهجه ولزوم هديه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ، يقول ابن القيم --رَحِمَهُ ٱللَّهُ-- في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد: «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوقَ كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل - إلى أن قال - وإذا كانت سعادةُ العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فيجِب على كلَّ من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مَا يَخْرُجُ به عن الجاهلين به ويدخل به في عِداد أتباعه وشِيعته وحِزبه ، والناس في هذا بين مستقِل ، ومستكثِر ، ومحروم ، والفضلُ بيد اللهّ يُؤتيه من يشاء ، واللهّ ذو الفضل العظيم

الأمر العاشر : أنَّ شمائله وسيرته العطرة - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تعدُّ منهج حياة لكلِّ مسلم يرجو لنفسه الخير والرفعة والحياة الكريمة في الدنيا والآخرة، يُربى عليها الأبناء وينشأ عليها الأجيال، وإذا حاد النشءُ عنها حصل لهم الضياع ،كما هو حال كثير من الشباب والشابات عندما يمموا في قراءاتهم للسير والأخبار نحو سير التافهين والتافهات، وأخبار الضائعين والضائعات من الهمل كيف ترتب على ذلك الانحراف في العقائد والعبادات! والانحلال في الآداب والأخلاق والاختلال في القِيَم والموازين، فما أَحوج هؤلاء إلى العودة الصادقة إلى هذه السيرة العطرة والشمائل المباركة؛ ليقِفوا على هذا المعين المبارك والمنهل العذب الذي مَن وقف عليه واهتدى بهداه تحقق له تمام الصَّلاح والفلاح والسَّعادة بإذن الله، «فالله سبحانه علَّق سعادة الدَّارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة

والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة » [**زاد المعاد لابن القيِّم 36/1**].

ثم من ينظر إلى واقع الناس من حيث العناية بسيرة النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-- يجد أن حالهم كما ذكر ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ- بين مقل ومستكثر ومحروم ؛ بل إنهم في هذا الباب:

إما رجل ابتُلي بالجفاء في حق إمام الخلق وقدوة الناس أجمعين فتجد أيامه تمضي وحياته وأوقاته تمر ولا يعطرها ولا يطيّبها بدراسة هدي وسيرة خير العباد التي هي زاد يبلّغ إلى رضوان الله ، وإلى هذا يلمح ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ- في عنوان كتابه [**زاد المعاد في معرفة هدي خير العباد**] ؛ لأن هذه المعرفة المثمرة للعمل هي الزاد للمعاد.

وقسم آخر أصيب في هذا الباب بغلو وتجاوز للحد ، وأصبحت السيرة والعناية بهدي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عنده نوع من المغالاة والإطراء المنهي عنه ، وإحداث البدع التي ما أنزل الله --تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها من سلطان ، وإحداث المواسم التي تخصص في أوقات من السنة لقراءة القصائد أو المدائح أو أحياناً لقراءة شيء من سيرة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-- ، مع تقصير بيّن وتفريط واضح في إتباع هديه ولزوم نهجه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، حتى إن بعضهم ليضيّع الفرائض المكتوبات وفي مقدمتها الصلوات الخمس ، ولا يضيّع ولا يفوّت تلك الاحتفالات.

وقسم - وهم خيار الناس - وسط في هذا الباب : لا غلو ولا جفاء ولا إفراط ولا تفريط، وخير الأمور أوساطها لا تفريطها ولا أفراطها.

وينبغي أن يُعلم أن دراسة سيرة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-- ليست متوقفة على قراءة الكتب المؤلَّفة بهذا العنوان [**سيرة النبي** - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -] ، لكن هذه الكتب رتبها أهل العلم وهذبوها واعتنوا بها تقريباً وتيسيرًا ، فمن تأمل مثلاً في صحيح البخاري وصحيح مسلم والكتب الستة وغيرها من كتب الحديث ، فهذه في الحقيقة تعد دراسة لهديه وسيرته ودعوته صلوات الله وسلامه عليه ، وهكذا كتب التفسير كلها مصادر لتلقي السيرة النبوية ، فكلما كان الإنسان ذا عناية بالقرآن والحديث علماً وعملاً وتطبيقاً فهو على خير عظيم في باب دراسة سيرة

النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- ، لكن هذه الكتب التي كتبها أهل العلم مختصرة ومطوّلة تقرّب الفائـدة وترتـب الموضـوع بترتيـب حياتـه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- بـدءً مـن ولادتـه فنشـأته فبعثـه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-- وهجرته إلى غير ذلك من أحداث السيرة العظيمة المباركة.

المصادر الأساسية لدراسة السيرة النبوية

تعددت مصادر دراسة السيرة النبوية، وتنوعت موضوعاتها، واختلفت مضامينها ، ودرجاتها من حيث التوثيق، نوردها على النحو الآتي:

1-القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم قد اشتمل على آيات كثيرة تناولت سيرة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قبل البعثة وبعدها ، كما تناول الغزوات النبوية.

2-كتب الحديث النبوي الشريف وشروحها:

وقد جمعت أقوال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأفعاله وتقريراته، وجاء فيها كثير ذكر سيرته ومغازيه، وبعض هذه الكتب قد أفرد كتبا وأبوابا لجوانب من سيرة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومغازيه وفضائله وشمائله، كصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجة، ومسند أحمد، ومسند أبي يعلى، وصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، والمصنف لعبد الرزاق، وغير ذلك من المصنفات.

3-كتب الشمائل:

وهي التي اشتملت على الأحاديث والآثار المتعلقة بصفات النبي صلى الله عليه الخِلقية والخُلقية، أحواله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، منذ ولادته إلى وفاته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ولا تتعرض لغزواته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ولا لجميع سيرته، كما هو الحال في كتب المغازي والسير.

ومن أشهر المصنفات في ذلك:

أ- الشمائل المحمدية للترمذي صاحب السنن، وهو مطبوع، وقد اختصره العلامة محمد ناصر الدين الألباني، وجرده من الأحاديث الضعيفة.

ت- الأنوار في شمائل النبي المختار، للبغوي صاحب كتاب: شرح السنة.

ج-الشمائل لابن كثير، ضمن كتابه البداية والنهاية.

4-كتب دلائل النبوة:

وهي أيضاً من الكتب التي أفردها مصنفوها بجانب خاص يتعلق بالنبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، ألا وهو جانب معجزاته - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، ودلائل نبوته.

ومن هذه الكتب:

أ- دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني.

ب-دلائل النبوة للبيهقي، وهو من أوسعها وأشملها، وقد لخصه الإمام الذهبي في أول تاريخه الكبير.

5-كتب المغازي والسير:

وفي طليعتها:

- **محمد بن شهاب الزهري**: وهو من كبار أئمة الحديث، وهو أول من جمع المسانيد.

- **موسى بن عقبة**: له كتاب المغازي، ويعتبر كتابه من أوثق مصادر السيرة وخصوصا ما يتعلق بجانب المغازي، وقد قال فيه الإمام مالك: «عليكم بمغازي موسى بن عقبة الرجل الصالح» ،

- **محمد بن إسحاق بن يسار**: كتب في السيرة، واشتهر بها، وله كتاب مشهور بسيرة ابن إسحاق، واسمه: المبتدأ والمبعث في المغازي ، وقد هذبه ابن هشام -رَحِمَهُٱللَّهُ- فحذف منه ما لا يصح، وخاصة من الأشعار المختلقة، وأضاف إليها ما يحتاج إليه، فكان له بهذا العمل أثر بالغ، حتى نسي الناس سيرة ابن إسحاق، وسموها سيرة ابن هشام.

-**محمد بن عمر الواقدي**: جرحه في الحديث جرحاً شديداً أكثر النقاد من المحدثين، ووثقه بعضهم، ولذلك قال الحافظ ابن حجر في التقريب: « متروك مع سعة علمه».



-أهم المؤلفات المعاصرة في السيرة:

1-تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون.

2- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المبارك فوري.

6-كتب خصائص النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وفضائله:

من المصنفات في ذلك:

أ-غاية السول في خصائص الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، لابن الملقن.

ب-الخصائص الكبرى، للسيوطي.

7-كتب التواريخ:

وهي كتب تبدأ غالباً بالحديث عن بدأ الخلق، وتنتهي بعصر المؤلف ومن هذه المصنفات :

أ - تاريخ الأمم والملوك، للإمام الطبري.

ب-تاريخ خليفة ابن خياط العصفري.

ج-الكامل لابن الأثير.

د-البداية والنهاية لابن كثير.

هـ-تاريخ الإسلام للذهبي.

8-كتب معرفة الصحابة:

وهي الكتب التي تتعلق بأسماء الصحابة وتراجمهم، مثل :

أ-الآحاد والمثاني، لابن أبي عاصم.

ب-معرفة الصحابة لأبي نعيم.

ج-الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر.

د-أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير

هـ-الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني.

9-كتب الطبقات:

وهي تشتمل على ذكر الشيوخ، وأحوالهم، ورواياتهم طبقة بعد طبقة، وعصراً بعد عصر، إلى زمن المؤلف .

وأهم المصنفات في ذلك :

أ-الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد.

ب-كتاب الطبقات لخليفة بن خياط العصفري.

10-كتب الأنساب:

كتب تفيد معرفة الأنساب، وأماكن القبائل، وتشمل مادة قليلة تتعلق بالسيرة.



أسئلة

س1 –عرّف السيرة لغةً واصلاحاً.

س2 –تحدث باختصار عن أهمية دراسة السيرة النبوية.

س3 –اذكر ما تعرفه عن مصادر دراسة السيرة النبوية.

س4 –اختر مع زملائك مصدر من مصادر دراسة السيرة النبوية ثم قم بإعداد تقرير مبسط عنه.



(العهدُ المكِّي)



نسبه ، ونشأته ، وأحواله قبل النبوة

النسب الشريف

هو أكرم خلق الله، وأفضل رسله، وخاتم أنبيائه: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهرْ بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم – عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ– بالاتفاق، ولكن لم يعرف بالضبط عدد ولا أسماء من بينه وبين إسماعيل -- عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

أما أمه – صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – فهي : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وكلاب هو الجد الخامس للنبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – من جهة أبيه، فأبوه وأمه من أصل واحد، يجتمعان في كلاب، واسمه حكيم، وقيل : عروة ، لكنه كان كثير الصيد بالكلاب فعرف بها.

قبيلته - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - :

وقبيلته – صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – هي قبيلة قريش المشهود لها بالشرف، ورفعة الشأن، والمجد الأصيل، وقداسة المكان بين سائر العرب، وهو لقب فِهرْ بن مالك أو النضر بن كنانة .

وكل من رجالات هذه القبيلة كانوا سادات وأشرافاً في زمانهم، وقد امتاز منهم قصي- – واسمه زيد – بعدة ميزات، فهو أول من تولى الكعبة من قريش، فكانت إليه حجابتها وسدانتها، أي كان بيده مفتاح الكعبة يفتحها لمن شاء ومتى شاء، وهو الذي أنزل قريشاً ببطن مكة، وأسكنهم في داخلها، وكانوا قبل ذلك في ضواحيها وأطرافها، متفرقين بين قبائل أخرى، وهو الذي أنشأ السقاية والرفادة، والسقاية: ماء عذب من نبيذ التمر أو العسل أو الزبيب ونحوه، كان يعده في حياض من الأديم يشربه الحجاج، والرفادة: طعام كان يصنع لهم

في الموسم، وقد بنى قصي بيتاً بشمالي الكعبة، عرف بدار الندوة، وهي دار شورى قريش، ومركز تحركاتهم الاجتماعية، فكان لا يعقد نكاح، ولا يتم أمر إلا في هذه الدار، وكان بيده اللواء والقيادة، فلا تعقد راية حرب إلا بيده، وكان كريماً وافر العقل، صاحب كلمة نافذة في قومه .

أسرته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

أما أسرته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فتعرف بالأسرة الهاشمية، نسبة إلى جدِّة الثاني هاشم، وقد ورث هاشم من مناصب قصي: السقاية والرفادة، ثم ورثهما أخوه المطلب، ثم أولاد هاشم إلى أن جاء الإسلام وهم على ذلك، وكان هاشم أعظم أهل زمانه، كان يهشم الخبز، أي يفتته في اللحم فيجعله ثريداً، ثم يتركه ليأكله الناس، فلقب بهاشم، واسمه عمرو ، وهو الذي سن الرحلتين: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وكان يعرف بسيد البطحاء .

ومن حديثه: أنه مر بيثرب، وهو في طريق تجارته إلى الشام، فتزوج سلمى بنت عمرو من بني عدي بن النجار، وأقام عندها مدة ، ثم مضى إلى الشام وهي حامل، فمات بغزة من أرض فلسطين، وولدت سلمى ابناً بالمدينة سمته: شيبة، لشيب في رأسه، ونشأ هذا الطفل بين أخواله في المدينة، ولم يعلم به أعمامه بمكة حتى بلغ نحو سبع سنين أو ثماني سنين، ثم علم به عمه المطلب، فذهب به إلى مكة، فلما رآه الناس ظنوه عبده فقالوا: عبد المطلب، فاشتهر بذلك.

وكان عبد المطلب أوسم الناس، وأجملهم، وأعظمهم قدراً، وقد شرف في زمانه شرفاً لم يبلغه أحد، كان سيد قريش وصاحب عير مكة، شريفاً مطاعاً جواداً يسمى بالفياض لسخائه، كان يرفع من مائدته للمساكين والوحوش والطيور، فكان يلقب بمطعم الناس في السهل، والوحوش والطيور في رؤوس الجبال، وقد تشرف بحفر بئر زمزم بعد أن كان قد درسها جُرْهم عند جلائهم عن مكة، وكان قد أُمِرَ بحفرها في المنام، ووُصِفَ له موضعها فيه.

وفي عهده وقعت حادثة الفيل، جاء أبرهة الأشرم من اليمن بستين ألف جندي من الأحباش، ومعه بعض الفيلة، ليهدم الكعبة، فلما وصل إلى وادي محسر بين المزدلفة ومنى، وتهيأ للهجوم على مكة أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكان ذلك قبل مولد النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بأقل من شهرين فقط .

أما والده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عبدالله فكان أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم، وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم، وبدت آثارها نازعته قريش، فنذر لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعوه ، ليذبحن أحدهم، فلما تم له ذلك أقرع بين أولاده، فوقعت القرعة على عبدالله، فذهب إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش، ولا سيما إخوانه وأخواله، ففداه بمائة من الإبل، فالنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ابن الذبيحين: إسماعيل -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وعبد الله، وابن المفديين، فدي إسماعيل -- عَلَيْهِ السَّلَامُ بكبش، وفُدي عبد الله بمائة من الإبل.

واختار عبد المطلب لابنه عبد الله آمنه بنت وهب، وكانت أفضل نساء قريش شرفاً وموضعاً، وكان أبوها وهب سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فتمت الخطبة والزواج، وبنى بها عبد الله بمكة فحملت برسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وبعد مدة أرسله عبد المطلب إلى المدينة – أو الشام في تجارة – فتوفي بالمدينة – راجعاً من الشام – ، ودفن في الدار النابغة الذبياني، وذلك قبل ولادته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على الأصح .

مولده :

ولد رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بشعب بني هاشم في مكة، صبيحة يوم الإثنين ، التاسع – ويقال: الثاني عشر – من شهر ربيع الأول عام الفيل، – والتاريخ الأول أصح والثاني أشهر – ، وهو يوافق اليوم الثاني والعشرين من شهر أبريل سنة 571م .

وكانت قابلته أي دايته: الشفاء بنت عمرو أم عبد الرحمن بن عوف -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، ولما ولدته أمه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وأرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بولادته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فجاء عبد المطلب مستبشراً مسروراً، وحمله، فأدخله الكعبة، وشكر الله،

ودعاه، وسماه محمداً، رجاء أن يحمد، وعق عنه، وختنه يوم سابعه، وأطعم الناس كما كان العرب يفعلون .

وكانت حاضنته أم أيمن: بركة الحبشية، مولاة والده عبد الله، وقد بقيت حتى أسلمت، وهاجرت، وتوفيت بعد النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بخمسة أشهر، أو بستة أشهر .

الرضاع :

وأول من أرضعته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعد أمه ثويبة: مولاة أبي لهب بلبن ابن لها، يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حمزة بن عبد المطلب وبعده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فهم إخوته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الرضاعة .

وقد أعتق أبو لهب أمته هذه فرحاً بولادة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولكنه صار من ألد أعدائه حينما قام بالدعوة إلى الإسلام.

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي، إبعاداً لهم عن أمراض الحواضر حتى تشتد أعصابهم، وليتقنوا اللسان العربي في مهدهم.

وقدر الله أن جاءت نسوة من بني سعد بن بكر بن هوزان يطلبن الرضعاء فعرض النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عليهن كلهن ، فأبين أن يرضعنه لأجل يتمه، ولم تجد إحدى النسوة — وهي حليمة بنت أبي ذويب السعدية نسبة لبني سعد — رضيعاً فأخذته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وحظيت به حظوة اغتبط لها الآخرون.

واسم زوج حليمة السعدية : الحارث بن عبد العزى، وأولاده ، إخوته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الرضاعة هم: عبد الله، وأنيسة، وجدامة وهي الشيماء، لقب غلب على اسمها، وكانت تحضن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وقد حلت البركات على أهل هذا البيت مدة وجوده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بينهم ، ومما روي من هذه البركات: أن حليمة لما جاءت إلى مكة كانت الأيام أيام جدب وقحط ، وكانت معها

أتان كانت أبطأ دابة في الركب مشياً لأجل الضعف والهزال، وكانت معها ناقة لا تدر بقطرة من لبن ، وكان لها ولد صغير يبكي ويصرخ طول الليل لأجل الجوع، ولا ينام، ولا يترك أبويه ينامان.

فلما جاءت حليمة بالنبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى رحلها، ووضعته في حجرها أقبل عليه ثدياها بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي، وشرب معه ابنها الصغير حتى روى، ثم ناما، وقام زوجها إلى الناقة فوجدها حافلاً باللبن، فحلب منها ما انتهيا بشربه رياً وشبعاً، ثم باتا بخير ليلة .

ولما خرجا راجعين إلى بادية بني سعد ركبت حليمة تلك الأتان، وحملت معها النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأسرعت الأتان حتى قطعت بالركب، ولم يستطع لحوقها شيء من الحمر.

ولما قدما في ديارهما: ديار بني سعد – وكانت أجدب أرض الله – كانت غنمهما تروح عليهما شباعاً ممتلئة الخواصر بالعلف، ممتلئة الضروع باللبن، فكانا يحلبان ويشربان، وما يحلب إنسان قطرة لبن .

فلم يزالا يعرفان من الله الزيادة والخير حتى اكتملت مدة الرضاعة ومضت سنتان ففطمته حليمة، وقد اشتد وقوي في هذه المدة .

بقاء النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في بني سعد بعد الرضاعة :

وكانت حليمة تأتي بالنبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى أمه وأسرته كل ستة أشهر ، ثم ترجع به إلى باديتها في بني سعد، فلما اكتملت مدة الرضاعة وفطمته ، وجاءت به إلى أمه حرصت على بقائه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عندها، لما رأت من البركة والخير، فطلبت من أم النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن تتركه عندها حتى يغلظ ، فإنها تخاف عليه وباء مكة ، فرضيت أمه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بذلك، ورجعت به حليمة إلى بيتها مستبشرة مسرورة، وبقي النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عندها بعد ذلك نحو سنتين، ثم وقعت حادثة غريبة أحدثت خوفاً في حليمة وزوجها حتى ردا النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى أمه، وتلك الحادثة هي شق صدره - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وإليكم بيان ذلك .

حادثة شق صدره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:

قال أنس بن مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: إن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أتاه جبريل وهو يلعب مع لغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه – أي ضمه وجمعه – ثم أعاده في مكانه.

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني ظئره (وهي المرضعة) – فقالوا إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون – أي متغير اللون – قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره .[**صحيح مسلم**5852].

وفاة أمه وكفالة جده عبد المطلب له:

ورجع النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بعد هذا الحادث إلى مكة، فبقي عند أمه وفي أسرته نحو سنتين، ثم سافرت معه أمه إلى المدينة، حيث قبر والده وأخوال جده بنو عدي بن النجار، وكان معها قيمها عبد المطلب، وخادمتها أم أيمن، فمكثت شهراً ثم رجعت، وبينما هي في الطريق لحقها المرض، واشتد حتى توفيت بالأبواء بين مكة والمدينة ، ودفنت هناك .

وعاد به– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – جده عبد المطلب إلى مكة، وهو يشعر بأعماق قلبه شدة ألم المصاب الجديد، فرق عليه رقة لم يرقها لي أحد من أولاده ، فكان يعظم قدره ، ويقدمه على أولاده ، ويكرمه غاية الإكرام، ويجلسه على فراشه الخاص الذي لم يكن يجلس عليه غيره ، ويمسح ظهره ، ويسر بما يراه يصنع ، ويعتقد أن له شأناً عظيماً في المستقبل، ولكنه توفي بعد سنتين حين كان عمره – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام .

كفالة عمه أبي طالب:

وقام بكفالته – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عمه أبو طالب شقيق أبيه، واختصه بفضل الرحمة والمودة، وكان مقلا من المال، فبارك الله في قليله، حتى كان طعام الواحد يشبع جميع أسرته، وكان الرسول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مثال القناعة والصبر ، يكتفي بما قدر الله له .

سفره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مع عمه أبي طالب إلى الشام وخبر بُحيرا الراهب :

وأراد أبو طالب أن يخرج بتجارة إلى الشام في عير قريش، وكان عمره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اثنتي عشرة سنة – وقيل : وشهرين وعشرة أيام – فاستعظم رسل الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فراقه، فرق عليه وأخذه معه ، فلما نزل الركب قريباً من مدينة بصرى على مشارف الشام خرج إليهم أحد كبار رهبان النصارى – وهو بحيرا الراهب – فتخلل في الركب حتى وصل إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأخذ بيده ، وقال: « هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين » .

قالوا : وما علمك بذلك ؟

قال : «إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا».

ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب، أن يرده ولا يقدم به إلى الشام خوفاً من اليهود والرومان، فرده أبو طالب إلى مكة.

حرب الفجار

وحين كان عمره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عشرين سنة – وقعت في السوق عكاظ حرب بين قبائل قريش وكنانة من جهة، وبين قبائل قيس عيلان من جهة أخرى، اشتد فيها البأس، وقتل عدد من الفريقين ، ثم اصطلحوا على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد، ووضعوا الحرب، وهدموا ما وقع بينهم من العداوة والشر .

وقد حضر هذه الحرب رسول لله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكان ينبل على أعمامه، أي يجهز لهم النبل للرمي .

وسميت هذه الحرب بحرب الفجار؛ لأنهم انتهكوا فيها حرمة حرم مكة والشهر الحرام، والفجار أربعة: كل في سنة، وهذه آخرها، وانتهت الثلاثة الأولى بعد خصام واشتجار طفيف، ولم يقع القتال إلا في الرابع فقط.

حلف الفضول :

وفي شهر ذي القعدة على إثر هذه الحرب تم حلف الفضول بين خمسة بطون من قبيلة قريش وهم : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو أسد ، وبنو زهرة ، وبنو تيم .

وسببه أن رجلاً من زبيد جاء بسلعة إلى مكة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي ، وحبس عنه حقه ، فاستعدي عليه ببني عبد الدار ، وبني مخزوم ، وبني جمح ، وبني سهم ، وبني عدي ، فلم يكترثوا له ، فعلا جبل أبي قبيس ، وذكر ظلامته في أبيات ، ونادى من يعينه على حقه ، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في دار عبد الله بن جدعان رئيس بني تيم، وتحالفوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته، ثم قاموا إلى العاص بن وائل السهمي، فانتزعوا منه حق الزبيدي، ودفعوه إليه .

وقد حضر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هذا الحلف مع أعمامه، وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة: « لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » .

اشتغاله بالرعي والتجاره

معلوم أن النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولد يتيماً ونشأ في كفالة جده ثم عمه، ولم يرث عن أبيه شيئاً يغنيه، فلما بلغ سنا يمكن العمل فيه ؛ رعى الغنم مع إخوته من الرضاعة في بني سعد.

ولما رجع إلى مكة رعاها لأهلها على قراريط، والقيراط جزء يسير من الدينار ، ورعى الغنم من سنن الأنبياء في أوائل حياتهم. فقد قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مرة بعد أن أكرمه الله بالنبوة: « ما من نبي إلا ورعاها ».

ولما شب النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبلغ الفتوة فكأنه كان يتجر، فقد ورد أنه كان يتجر مع السائب بن أبي السائب، فكان خير شريك له ، لا يجاري ولا يماري .

وعرف - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في معاملاته بالأمانة والصدق والعفاف، وكان هذا هديه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في جميع مجالات الحياة حتى لقب بالأمين .

سفره إلى الشام وتجارته في مال خديجة :

وكانت خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- - من أفضل نساء قريش شرفاً ومالاً، وكانت تعطي مالها للتجار يتجرون فيه على أجرة، فلما سمعت عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عرضت عليها مالها ليخرج فيه إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما أعطته غيره، وخرج رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مع غلامها ميسرة إلى الشام ، فباع وابتاع وربح ربحاً عظيماً ، وحصل في مالها من البركة ما لم يحصل من قبل ، ثم رجع إلى مكة ، وأدى الأمانة .

زواجه بخديجة

ورأت خديجة من الأمانة والبركة ما يبهر القلوب ، وقص عليها ميسرة ما رأى في النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من كرم الشمائل وعذوبة الخلال ، يقال: وبعض الخوارق، مثل تظليل الملكين له في الحر ، فشعرت خديجة بنيل بغيتها فيه، فأرسلت إليه إحدى صديقاتها تبدى رغبتها في الزواج به، ورضي النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بذلك، وكلم أعمامه، فخطبوها له إلى عمها عمرو بن أسد، فزوجها عمها بالنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في محضر من بني هاشم ورؤساء قريش على صداق قدره عشرون بكرة، وقيل ست بكرات، وكان الذي ألقى خطبة النكاح هو عمه أبو طالب: فحمد الله ، وأثنى عليه، ثم ذكر شرف النسب وفضل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ثم ذكر كلمة العقد وبين الصداق .

تم هذا الزواج بعد رجوعه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الشام بشهرين وأيام، وكان عمره إذ ذاك خمساً وعشرين سنة .

أما خديجة فالأشهر أن سنها كانت أربعين سنة ، وقيل : ثمان وعشرين سنة، وقيل غير ذلك، وكانت أولاً متزوجة بعتيق بن عائذ المخزومي، فمات عنها ، فتزوجها أبو هالة التيمي ،

فمات عنها أيضاً بعد أن ترك له منها ولداً ، ثم حرص على زواجها كبار رؤساء قريش فأبت حتى رغبت في رسول الله- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وتزوجت به، فسعدت به سعادة يغبط عليها الأولون والآخرون .

وهي أول أزواجه- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، وكل أولاده - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - منها إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية .

أولاده - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من خديجة :

هم : القاسم ، ثم زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم عبدالله ، وقيل غير ذلك في عددهم وترتيبهم ، وقد مات البنون كلهم صغاراً . أما البنات فقد أدركن كلهن زمن النبوة ، فأسلمن وهاجرن ، ثم توفاهن الموت قبل النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلا فاطمة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- ، فإنها عاشت بعده - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ستة أشهر .

بناء البيت وقصة التحكيم :

ولما بلغ - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف صدع جدران الكعبة ، وكانت قد وهنت من قبل لأجل حريق ، فاضطرت قريش إلى بنائها من جديد ، وقرروا أن لا يدخلوا في نفقتها إلا طيباً ، فلا يدخلوا فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد ، وهابوا عقاب الله على هدمها ، فقال الوليد بن المغيرة : إن الله لا يهلك المصلحين ، ثم بدأ يهدم ، فتبعوه في هدمها حتى وصلوا بها إلى قواعد إبراهيم .

ثم أخذوا في بناء البيت ، وخصصوا لكل قبيلة جزءاً منها ، وكان الأشراف يحملون الحجارة على أعناقهم ، وكان رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعمه العباس فيمن يحمل، وتولى البناء بنَّاءٌ رومي اسمه: باقوم، وضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إبراهيم، فأخرجوا منها نحو ستة أذرع من جهة الشمال، وبنوا عليها جداراً قصيراً علامة أنه من الكعبة. وهذا الجزء و المعروف بالحجر والحطيم .

ولما وصل البنيان إلى موضع الحجر الأسود أراد كل رئيس أن يتشرف بوضعه في مكانه، فوقع بينهم التنازع والخصام ، واستمر أربعة أيام أو خمسة ، وكاد يتحول إلى حرب دامية في الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي تداركها بحكمة – وكان أسن رجل في قريش – فاقترح عليهم أن يحكِّمُوا أول رجل يدخل عليهم من باب مسجد، فقبلوا ذلك ، واتفقوا عليه.

وكان من قدر الله أن أول من دخل بعد هذا القرار هو رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - فلما رأوه هتفوا ، وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر، أخذ رداءً ، ووضع فيه الحجر الأسود، وأمرهم أن يمسك كل واحد منهم بطرف من الرداء ويرفعه، فلما وصل الحجر الأسود إلى موضعه أخذه النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - بيده ووضعه في مكانه ، وكان حلاً حصيفاً رضي به الجميع.

والحجر الأسود يرتفع عن أرض المطاف متراً ونصف متر، أما الباب، فقد رفعوه نحو مترين حتى لا يدخل إلا من أرادوا. وأما الجدران فرفعوها ثمانية عشر ذراعاً، وكانت على نصف من ذلك، ونصبوا في داخل الكعبة ستة أعمدة في صفين ثم سقفوها على ارتفاع خمسة عشر ذراعاً وكانت من قبل بدون سقف ولا عمود .

سيرته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قبل البعثة

نشأ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - منذ صباه سليم العقل ، وافر القوى ، نزيه الجانب ، فترعرع ، وشب ، ونضج ، وهو جامع للصفات الحميدة والشيم النبيلة ، فكان طرازاً رفيعاً من الفكر الصائب والنظر السديد ، ومثالاً نهائياً في مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال ، امتاز بالصدق والأمانة ، والمروءة ، والشجاعة ، والعدل ، والحكمة ، والعفة ، والزهد ، والقناعة ، والحلم ، والصبر والشكر ، والحياء والوفاء ، والتواضع والتناصح .

وكان على أعلى قمة من البر والإحسان كما قال عمه أبو طالب :

وأبيض يُسْتَسقَى الغمامُ بِوَجْهِهِ ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ

وكان وصولاً للرحم ، حمولاً لما يثقل كواهل الناس ، يساعد من أعدم العيش حتى يصيب الكسب ، وكان يقري الضيف ، وبغض إليه ما كان في قومه من خرافة وسوء ، فلم يشهد أعياد الأوثان واحتفالات الشرك ، ولم يأكل مما ذبح على النصب أو أهل به لغير الله ، وكان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى فضلاً عن مس الأصنام أو التقرب إليها .

وكان أبعد لناس من شرب الخمر وشهود الملاهي حتى لم يحضر مجالس اللهو والسمر ونواديها التي كانت منتزه الشباب وملتقى الأحبة في مكة.

أسئلة

س1 –تحدث عن نسب نبينا محمد – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ومولده .

س2 –اكتب مذكرة مختصرة عن :

أ – حواضنه ومرضعاته .

ب – حادثة شق صدره .

ج–اشتغاله بالرعي والتجارة.

د–زواجه بخديجة رضي الله عنها.

س3 – اشتهر النبي – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قبل مبعثه بالأخلاق الرفيعة والخصال الحميدة تحدّث عن ذلك.

س4 –بين دور السيدة خديجة رضي الله عنها في شد أزر النبي صلى الله عليه وسلم في بدايات الدعوة.



تباشير النبـــوة وبداية الدعـــوة

تباشير النبـوة وبداية الدعـوة

طفق - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقلق مما يراه عليه قومه من الشقاوة والفساد، ويرغب في الاعتزال عنهم والخلوة بنفسه مع تفكيره في سبيل ينجيهم من التعاسة والبوار .

واشتد هذا القلق، وقويت هذه الرغبة مع تقدم السن حتى كأن حادياً يحدوه إلى الخلوة والانقطاع، فأخذ يخلو بغار حراء[1]، يتعبد الله فيه على بقايا دين إبراهيم -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وذلك من كل سنة شهراً، وهو شهر رمضان، فإذا قضى جواره بتمام هذا الشهر انصرف إلى مكة صباحاً، فيطوف بالبيت، ثم يعود إلى داره ، وقد تكرر ذلك منه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثلاث سنوات .

فلما تكامل له أربعون سنة – وهي سن الكمال، ولها بعثت الرسل غالباً – بدأت طلائع النبوة وتباشير السعادة في الظهور، فكان يرى رؤيا صالحة تقع كما يرى، وكان يرى الضوء ويسمع الصوت وقال:« إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث » .

بداية النبوة ونزول الوحي :

فلما كان في رمضان من السنة الحادية والأربعين وهو معتكف بغار حراء ، يذكر الله ويعبده ، فجاءه جبريل -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالنبوة والوحي.

وهذه عائشة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- زوج النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تروي لنا هذه القصة بتفاصيلها ، قالت عائشة-رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا-:أول ما بُدئ به رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار

---

(1) حراء : اسم الجبل الذي يعرف اليوم بجبل النور ، وهو على بعد نحو ميلين من أصل مكة ، أما الغار فيقع فيه بجنب قمته الشامخة أسفل منها على يسار الصاعد إليها ، يصل الرجل إلى الغار بعد ما ينزل من القمة، وهو غار لطيف طوله ينقص قليلاً عن أربعة أمتار، وعرضه يزيد قليلاً على متر ونصف متر .

حراء فيتحنث – أي يتعبد – فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال: اقرأ ، قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني، فغطني حتى بلغ مني جهد، ثم أرسلني، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني . فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ ﴾ **[العلق]** .

فرجع بها رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ – يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد – رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا – فقال: دثروني دثروني حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة – وأخبرها الخبر –: لقد خشيت على نفسي. فَقَالت خديجة: كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي ، ابن عم خديجة ، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية ، وكان شيخاً قد عمى .

فقالت له خديجة : يا ابن العم اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ – خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جزعاً – أي قوياً جلداً – ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ – : أو مخرجي هم ؟

قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم يلبث ورقة أن توفى ، وفتر الوحي . [صحيح البخاري كتاب بدء الوحي].

فترة الوحي ثم عودته :

وكان الوحي قد فتر وانقطع بعد أول نزوله في غار حراء – كما سبق – ودام هذا الانقطاع أياماً، وقد أعقب ذلك في النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حزناً، ولكن المصلحة كانت في هذا الانقطاع، فقد ذهب عنه الروع، وتثبت من أمره، وتهيأ لاحتمال مثل ما سبق حين يعود، وحصل له التشوف والانتظار، وأخذ يرتقب مجئ الوحي مرة أخرى .

وكان - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد عاد من عند ورقة بن نوفل إلى حراء ليواصل جواره في غاره، ويكمل ما تبقى من شهر رمضان، فلما انتهى شهر رمضان وتم جواره نزل من حراء صبيحة غرة شوال ليعود إلى مكة حسب عادته.

قال - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : فلما استبطنت الوادي- أي دخلت في بطنه – نوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت إلى شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً ، فإذا الملك جاءني بحراْ جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعباً حتى هويت إلى الأرض، فأتيت خديجة ، فقلت : دثروني، وصُبوا على ماء بارداً ، فدثروني وصبوا على ماء بارداً ، فنزلت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ المدثر: ١ - ٥

، وذلك قبل أن تفرض الصلاة ثم حمي الوحي وتتابع .

وهذه الآيات هي بدء رسالته - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهي متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحي، وفي ذلك يقول السلف نبئ بـ(اقرأ) ، وأرسل بـ(المدثر) ، وتشتمل هذه الآيات على :

تكليفه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالبلاغ والتحذير، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ ، فإن معناه : حذر الناس من عذاب الله ومن الشرك وأن لم يرجعوا عما هما فيه من الغي والضلال ، وعبادة غير الله المتعال، .

كذلك تكليفه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بتطبيق أوامر الله – - -سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ –وذلك في بقية الآيات، فقوله : ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾. معناه : عظمه بالتوحيد، ولا تشرك به في ذلك أحداً غيره.

وقوله: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي طهر أعمالك من الشرك. وقوله: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾الرجز الأصنام ، وهجرها تركها والبرائة منها ومن أهلها، وقوله : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي لا تحسن إحساناً تريد أفضل منه في هذه الدنيا .

أما الآية الأخيرة فأشار فيها إلى ما يلحقه من أذى قومه، حين يفارقهم في الدين، ويقوم بدعوتهم إلى الله وحده ، فقال: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

القيام بالدعوة سراً :

وقام رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على أثر نزول هذه الآيات بالدعوة إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وحيث إن قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا إباءهم على ذلك، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة، ولا سبيل لهم في حل المشاكل إلا السيف، فقد اختار الله أن يقوم بالدعوة سراً، ولا يواجه بها إلا من يعرفه بالخير وحب الحق، ويثق به ويطمئن إليه، وان يقدم أهله وعشيرته وأصدقاءه وندماءه على غيرهم.

أول من آمن به :

فلما بدأ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دعوته بادر إلى الإيمان به عدد ممن كتب الله له السبق إلى السعادة والخير:

1 - وكانت أولهم على الإطلاق أم المؤمنين خديجة بنت خويلد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- ، وكانت قد علمت البشارات، وأبصرت ملامح النبوة، وشاهدت تباشير الرسالة.

2 -وبادر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى صديقه الحميم أبي بكر الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ليخبره بما أكرمه الله به من النبوة والرسالة ، ويدعوه إلى الإيمان به ، فآمن أول من أمن به على الإطلاق من الرجال ، وكان أصغر منه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بسنتين ، وصديقاً له منذ عهد قديم، عارفاً بسره وعلانيته، فكان إيمانه أعدل شاهد على صدقه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

3 -ومن أول من آمن به على بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-كان تحت كفالته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مقيماً عنده ، يطعمه ويسقيه ، ويقوم بأمره، لأن قريشاً أصابتهم مجاعة، وكان أبو طالب مقلاً

كثير الأولاد، فكفل العباس ابنه جعفراً، وكفل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عليا ، فكان كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز البلوغ، -يقال: كان عمره عشر سنين- وكان يتبعه في كل أعماله ، فلما دعاه إلى الإسلام أجاب إليه ، وهو أول من آمن به من الصبيان .

ومن أول من آمن به مولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، كان قد أسر أيام الجاهلية وبيع، فاشتراه حكيم بن حزام ، ووهبه لعمته خديجة ، فوهبته خديجة لرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعلم به أبوه وعمه فجاءا إلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكلماه ليحسن إليهما في فدائه، فدعا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - زيداً ، وخيره بين أن يذهب مع أبيه وعمه وبين أن يبقى عنده، فاختاره عليهما، وعندئذ ذهب رسول الله إلى الملأ من قريش، وقال : اشهدوا أن هذا ابني وارثاً وموروثاً، وذلك قبل النبوة، فكان يدعى زيد بن محمد حتى جاء الإسلام وأبطل التبني، فدعي زيد بن الحارثة .

هؤلاء الأربعة كلهم أسلموا في يوم واحد، يوم أمر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالإنذار، وقام بالدعوة إلى الله.

ثم نشط للدعوة إلى الله أبو بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وصار الساعد الأيمن للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في مهمة رسالته ، وكان رجلاً عفيفاً، مألفاً محبباً ، سهلاً كريماً ، جواداً ، معظماً ، أعلم الناس بأنساب العرب وأخبارها ، يقصده رجال قومه لخلقه ومعروفه ، وعلمه وفضله ، وتجارته وجوده ، وحسن معاملته ومجالسته ، فدعا إلى الإسلام من توسم فيه الخير ووثق به من قومه ، فأجابه جمع من فضلاء الناس، في مقدمتهم عثمان بن عفان الأموي ، والزبير بن العوام الأسدي ، وعبد الرحمن بن عوف الزهري ، وسعد بن أبي وقاص الزهري ، وطلحة بن عبيد الله التيمى ، بين لهم أبو بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الإسلام ، وأتى بهم إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأسلموا جميعاً ، وهم من العشرة المبشرين بالجنة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- وأرضاهم.

ثم تلا هؤلاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وامرأته أم سلمة ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وأخواه قدامة وعبدالله ابنا

مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب ، وخباب بن الأرت ، وجعفر بن أبي طالب ، وامرأته بنت عميس ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وحاطب بن حارث ، وامرأته فاطمة بنت المجلل ، وأخوه حطاب بن حارث ، وامرأته فكيهة بنت أبي عوف ، ونعيم بن عبد الله بن أسيد النحام ، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش.

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش : عبدالله بن مسعود الهذلي ، ومسعود بن ربيعة القارئ ، وعبدالله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد بن جحش ، وصهيب بن سنان الرومي ، وعمار بن ياسر العنسي ، وأبوه ياسر ، وأمه سمية ، وعامر بن فهيرة .

وممن سبق إلى الإسلام من نساء من غير من تقدم ذكرهن : أم أيمن بركة الحبشية ، مولاة رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وحاضنته، أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية ، زوج العباس بن عبد المطلب ، وأسماء بنت أبي بكر الصديق -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-.

لم توجه لمن آمن برسالة محمد - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عبادات وأوامر ونواه أخرى في أوائل أيام الإسلام، وإنما كان الوحي يبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغبهم في تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار، ويعظهم مواعظ بليغة تشرح الصدور وتغذي الأرواح .

وكان النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويحدو بهم إلى منازل نقاء القلوب، ونظافة الأخلاق ، وعفة النفوس، وصدق المعاملات، وبالجملة كان يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، ويربيهم على التمسك بدين الله والاعتصام بحبل الله ، والثبات في أمر الله ، والاستقامة عليه .

وهكذا مرت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، لم يجهر بها النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في المجامع والنوادي، إلا أنها صارت معروفة لدى قريش، وقد تنكر لهم

بعضهم أحياناً، واعتدوا على بعض المؤمنين، ولكنهم لم يبالوا بها بصفة عامة، حيث لم يتعرض رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لدينهم ولم يتكلم في آلهتهم.

الجهر بالدعوة

الدعوة في الأقربين :

وبعد أن قضى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثلاث سنوات في سبيل الدعوة الفردية، ووجد لها آذاناً صاغية، ورجالاً صالحين من صميم قريش وغيرها، وتمهدت لها السبل، وتهيأ لظهورها الجو أنزل الله تعالى على رسوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء] .

فجمع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عشيرته الأقربين ، وهم بنو هاشم، ومعهم نفر من بني المطلب، فقال بعد الحمد وشهادة التوحيد :

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً. وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً » .

فتكلم القوم كلاماً ليناً، غير عمه أبي لهب فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، فإن سلمتموه إذن ذللتم، وإن منعتموه قتلتم، فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا، وقال أيضاً: أمض لما أمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

صعوده على جبل الصفا :

وفي غضون ذلك نزل أيضاً قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر] فصعد رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذات يوم على الصفا فعلا أعلاها حجراً ، ثم هتف : « يا صباحاه » ، وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقع أمر عظيم.

ثم جعل ينادي بطون قريش ، ويدعوهم قبائل قبائل : يا بني فِهْر ! يا بني عَدِي ! يا بني فلان ! يا بني فلان ، يا بني عبد مناف ! يا بني عبد المطلب !

فلما سمعوا قالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد . فأسرع الناس إليه ، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟

فلما اجتمعوا قال: « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي » ؟

قالوا : نعم، ما جربنا عليك كذباً ، ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله – أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم العدو – فخشي أن يسبقوه ، فجعل ينادي : يا صباحاه » .

ثم دعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وبين لهم أن هذه الكلمة هي ملاك الدنيا ونجاة الآخرة ، ثم حذرهم وأنذرهم عذاب الله إن بقوا على شركهم ، ولم يؤمنوا بما جاء به من عند الله ، وأنه مع كونه رسولاً لا ينقذهم من العذاب ولا يغنيهم من الله شيئاً .

وعمَّ هذا الإنذار وخصَّ فقال: « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، ولا أغني عنكم من الله شيئاً .

يا بني كعب بن لؤي ! أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً .

يا بني مرة بن كعب ! أنقذوا أنفسكم من النار .

يا معشر بني قصي ! أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً .

يا بني عبد شمس ! أنقذوا أنفسكم من النار .

يا بني عبد مناف ! أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً .

يا بني هاشم ! أنقذوا أنفسكم من النار .

يا بني عبد المطلب ! أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، ولا أغني عنكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم ، ولا أملك لكم من الله شيئاً .

يا عباس بن عبد المطلب ! لا أغني عنك من الله شيئاً .

يا صفية بنت عبد المطلب : عمة رسول الله ! لا أغني عنك من الله شئياً .

يا فاطمة بنت محمد رسول الله ! سليني بما شئت ، أنقذي نفسك من النار ، لا أغني عنك من الله شيئاً .

غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها – أي سأصلها حسب حقها – .

لما أتم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أنهم أبدوا أي معارضة أو تأييد لما سمعوه ، سوى ما ورد عن أبي لهب أنه واجه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالسوء، فقال : تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت:﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد] .

أما عامة قريش فكأنهم قد أصابتهم الدهشة والاستغراب حين فوجئوا بهذا الإنذار، ولم يستطيعوا أن يختاروا أي موقف تجاه ذلك ، ولكنهم لما رجعوا إلى بيوتهم ، واستقرت أنفسهم ، وأفاقوا من دهشتهم ، واطمأنوا ، استكبروا في أنفسهم ، وتناولوا هذه الدعوة والإنذار بالاستخفاف والاستهزاء ، فكان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إذا مرَّ على ملأ منهم سخروا منه وقالوا : أهذا الذي بعث الله رسولاً ؟ أهذا ابن أبي كبشة، يكلم من السماء أمثال ذلك .

وأبو كبشة اسم لأحد أجداده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من جهة الأم ، كان قد خالف دين قريش ، واختار النصرانية ، فلما خالفهم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الدين نسبوه إليه، وشبهوه به ، تعييراً واحتقاراً له وطعناً فيه .

واستمر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في دعوته وبدأ يجهر في نواديهم ومجامعهم ، يتلو عليهم كتاب الله ، ويدعوهم إلى ما دعت إليه الرسل :﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 59] وبدأ يعبد الله أمام أعينهم ، فكان يصلي بفناء الكعبة نهاراً جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد .

وقد نالت دعوته بعض القبول ، ودخل عدد من الناس في دين الله واحداً بعد واحد ، وحصل بين هؤلاء المسلمين وبين من لم يسلم من أهل بيتهم التباغض والتباعد .

قريش تكف الحجاج عن دعوة محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

اشمأزت قريش من كل ذلك ، وساءهم ما رأوه ، وما هي إلا أيام حتى اقترب موعد الحج ، وأهمهم أمر الحجاج ، فاجتمع نفر منهم إلى الوليد بن المغيرة – وكان ذا سن وشرف فيهم – فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً .

قالوا : أنت فقل ، وأقم لنا رأياً نقول به . قال : لا بل أنتم فقولوا وأسمع .

قالوا : نقول : كاهن . قال : ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان ، فلما هو بزمزمة الكهان ولا بسجعهم .

قالوا : فنقول مجنون .قال : ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهجزه وقريضه ومقبوضة ومبسوطة . فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم ، فما هو بنفثه ولا بعقده .

قالوا : فماذا نقول ؟

قال : والله إنَّ لقوله حلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً ، وإنَّ أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا أنتم شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا : هو ساحر ، وقوله سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه . وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه بذلك ، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا للموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه وذكروا له أمره - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فعرف الناس أمره قبل أن يروه أو يسمعوا منه .

وجاءت أيام الحج فخرج النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى مجامع الحجاج ورحالهم ومنازلهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وقال لهم: « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » ، وتبعه أبو لهب يكذبه ويؤذيه ، فصدرت العرب من ذلك الموسم وقد عرفوا أمر رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

أساليب قريش لمواجهة الدعوة :

ولما انتهى الحج ، وعادت قريش إلى بيوتهم ، واطمأنوا كأنهم رأوا أن يعالجوا هذه المشكلة التي نشأت لأجل قيام رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالدعوة إلى الله وحده ، ففكروا واستشاروا ، ثم اختاروا سبلاً شتى لمواجهة هذه الدعوة والقضاء عليها ، نذكرها فيما يلي بإيجاز .

الأول : مواصلة السخرية والاستهزاء والإكثار منها : والقصد من ذلك تخذيل رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فكانوا يتهمون رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بأنه رجل مسحور ، شاعر مجنون ، كاهن يأتيه الشيطان ، ساحر كذاب ، مفتر متقول ، وغير ذلك من التهم والشتائم ، وكانوا إذا رأوه يجئ ويذهب ينظرون إليه نظر الغضب والنقمة ، كما قال الله – تعالى - : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ ﴾ [القلم] ، وكانوا إذا رأوه يتهكمون به ، ويقولون : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء:36] .

وإذا رأوا ضعفاء الصحابة قالوا : قد جاءكم ملوك الأرض ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام:53] .

وكما قال الله تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين] .

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء، ومن الطعن والتضحيك حتى أثر ذلك في نفس النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - كما قال الله تعالى - : ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر] ، ثم ثبته الله – تعالى – وبين له ما يذهب بهذا الضيق، فقال : ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر] ..

وقد بين له قبل ذلك ما فيه التسلية ، حيث قال: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر] .

وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالاً عليهم ، فقال : ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام] .

الثاني : الحيلولة بين الناس وبين الاستماع إلى النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - : فقد قرروا أن يثيروا الشغب، ويرفعوا الضوضاء، ويطردوا الناس كلما رأوا النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - يستعد ليقوم بالدعوة إلى الله فيما بينهم ، وأن لا يتركوا له فرصة ينتهزها لبيان ما يدعوا إليه ، وقد تواصوا بذلك فيما بينهم . قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] ، وقد ظلوا قائمين بذلك بكل شدة وصلابة ، حتى إن أول قرآن تمكن النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - من تلاوته في مجامعهم هو سورة النجم ، وذلك في رمضان في السنة الخامسة من النبوة .

وكانوا إذا سمعوا النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - يتلو القرآن في صلاته – وأكثر ما كان يتلوه في صلاته بالليل – سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، حتى أنزل الله – تعالى -: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء] .

وذهب النضر بن الحارث إلى الحيرة والشام ، فتعلم منهم قصصاً شعبية ، كانوا يحكونها عن ملوكهم وأمرائهم مثل : رستم وإسفنديار ، فلما رجع أخذ يعقد النوادي والمجالس ، يقص هذه القصص ويصرف بها الناس عن الاستماع إلى النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وإذا سمع بمجلس جلس فيه رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للتذكير بالله ، خلفه في ذلك المجلس ، ويقص عليهم من تلك القصص ، ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثاً مني .

الثالث : إثارة الشبهات تكثيف الدعايات الكاذبة : فقد أكثروا من ذلك وتفننوا فيه، فربما كانوا يقولون عن القرآن: إنه **أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ** ، أي أحلام كاذبة يراها محمد - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالليل ، فيتلوها بالنهار . وأحياناً كانوا يقولون : «افتراه من عند نفسه» ، وأحياناً كانوا يقولون كما أخبر الله عنهم : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ [النحل] .

وربما قالوا: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ [الفرقان: 4] ، أي اشتراك هو وزملاؤه في اختلاقه ، ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ [الفرقان] ، وأحياناً قالوا: أن له جناً أو شيطاناً يتنزل عليه بالقرآن مثل ما ينزل الجن والشياطين على الكهان، قال – تعالى– رداً عليهم: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ ﴾ [الشعراء] ، أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جربتم علي كذباً، ولا وجدتم في فسقاً، فكيف تقولون إن القرآن من تنزيل الشيطان؟

وأحياناً كانوا يقولون عن النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إنه قد أصابه نوع من الجنون ، فهو يتخيل المعاني ثم يصوغها في كلمات بديعة رائعة ، كما يصوغ الشعراء ، فهو شاعر وكلامه شعر ، قال – تعالى – رداً عليهم : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ ﴾ [الشعراء] .

فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء ، ولا توجد واحدة منها في النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فالذين اتبعوه هداة ، متقون ، صالحون في دينهم، وخلقهم، وأفعالهم، وتصرفاتهم، ومعاملاتهم، ولا توجد عليهم مسحة من الغواية في أي شأن من شئونهم. وهو لا يهيم في

الأودية كلها كما يهيم الشعراء ، بل يدعو إلى رب واحد ، ودين واحد ، وصراط واحد، وهو لا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول، فأين هو من الشعر والشعراء ؟ وأين الشعر والشعراء منه ؟

الرابع : النقاش والجدال : وكانت ثلاث قضايا استغربها المشركون جداً ، وكانت هي الأساس في الخلاف الذي حصل بينهم وبين المسلمين في أمر الدين ، وهي : التوحيد ، والرسالة ، والبعث بعد الموت ، فكانوا يناقشون في هذه القضايا ، ويجادلون حولها .

فأما البعث بعد الموت فلم يكن عندهم في ذلك إلا التعجب والاستغراب ، والاستبعاد العقلي فقط ، فكانوا يقولون : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات] وكانوا يقولون : ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق]. وكانوا يقولون : ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾[سبأ : 7، 8] ، وقال قائلهم :

أَمَوْتٌ ثُم بعثٌ ثم حشرٌ حديثُ خرافة يا أمَّ عمرو

وأما رسالة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكانت لهم حولها شبهات مع معرفتهم واعترافهم بصدق النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأمانته وغاية صلاحه وتقواه ، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن منصب النبوة والرسالة أعظم وأجل من أن يعطى لبشر، فالبشر لا يكون رسولاً ، والرسول لا يكون بشراً ، حسب عقيدتهم ، فلما أعلن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن نبوته ورسالته ، ودعا إلى الإيمان به تحير المشركون، وتعجبوا ، وقالوا : ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 7] ، وقال تعالى -: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق] ، وقالوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:91] ، وقد أبطل الله عقيدتهم هذه ، وقال رداً عليهم : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام:91]، وقص عليهم قصص الأنبياء والرسل ، وما جرى بينهم وبين قومهم من الحوار ، وأن قومهم قالوا إنكاراً لرسالتهم : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم:10] ،و﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: 11]

.

فالأنبياء والرسل كلهم كانوا بشراً ، وأما أن يكون الرسول ملكاً فإن ذلك لا يفي بغرض الرسالة ومصلحتها ، إذ البشر لا يستطيع أن يتأسى بالملائكة ، ثم تبقى الشبهة كما هي ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9].

وحيث إن المشركين كانوا يعترفون أن إبراهيم وإسماعيل وموسى عليهم السلام كانوا رسلاً وكانوا بشراً ، فإنهم لم يجدوا مجالاً للإصرار على شبهتهم هذه ، ولكنهم أبدوا شبهة أخرى قالوا : ألم يجد الله لحمل رسالته إلا هذا اليتيم المسكين ؟ ما كان الله ليترك العظماء الكبار من أشراف قريش وثقيف، ويرسل هذا، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:31].

أي من مكة والطائف، قال – تعالى – رداً عليهم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: 32].

يعني أن الوحي والقرآن والنبوة والرسالة رحمة من الله ، والله يعلم كيف يقسم رحمته ، وأين يضعها، فمن يعطيها ومن يحرمها، قال – تعالى – ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

فلما ردَّ على شبهتهم هذه تقدموا خطوة أخرى ، وأخذوا يطالبون بالآيات عناداً وتعجيزاً ، فدار بينهم وبين النبي – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نقاش وحوار ، وسنأتي على شيء منه إن شاء الله .

أما قضية التوحيد فكانت رأس القضايا وأصل الخلاف، وكان المشركون يقرون بتوحيد الله –في ربوبيته– أي أن الله هو الخالق الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وهو خالق كل شيء، وهو المالك الذي بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما، وملكوت كل شيء، وهو الرازق الذي يرزق الناس والدواب والأنعام، ويرزق كل حي، وهو المدبر الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ويدبر أمر كل صغير وكبير حتى الذرة والنملة، وهو رب السماوات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم، ورب كل شيء، سخر الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والجن والإنس والملائكة ، كل له خاضعون، يُجير من

يشاء على من يشاء ولا يجار عليه أبداً، يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه .

وهم بعد هذا الإقرار الصريح لتوحيد الربوبية لـه – -سُبْحَانَهُوَتَعَالَى –كانوا يقولون: إن الله تعالى أعطى بعض عبادة المقربين – كالأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين – شيئاً من التصرف في بعض أمور الكون، فهم يتصرفون فيه بإذنه مثل: هبة الأولاد، ودفع الكربات، وقضاء الحوائج، وشفاء المرضى، وأمثال ذلك، وأن الله إنما أعطاهم ذلك لقربهم من الله ، ولجاههم عند الله، فهم لأجل أن الله منحهم هذا التصرف وهذا الخيار يقضون بعض حاجات العباد عن طريق الغيب ، فيكشفون عنهم بعض الكربات ، ويدفعون بعض البليات ، ويقربون إلى الله من يرضون به ، ويشفعون له عنده ، فكانوا يجعلون صورا لأولئك الأولياء والصالحين متمثلة في أصنام نحتت من الحجر أو الشجر ويقولون أن أرواح أولئك الصالحين تحل بها وأغوتهم الشياطين أنها تناديهم عندما ينادونها ويستغيثون بها فتنة لهم،

والمشركون على أساس زعمهم هذا، جعلوا هؤلاء الأنبياء والأولياء والصالحين الذين صوروا لهم الأصنام ؛ وسيلة ووسائط فيما بينهم وبين الله ، واخترعوا أعمالاً يتقربون بها إليهم، ويبتغون بها رضاهم، فكانوا يأتون بتلك الأعمال ثم يتضرعون إليهم، ويدعونهم لقضاء حوائجهم، ويستغيثون بهم في شدائدهم، ويستعيذون بهم في مخاوفهم .

أما الأعمال التي اخترعوها للتقرب إليهم فهي أنهم خصصوا لهؤلاء الأنبياء أو الأولياء والصالحين أماكن ، وبنوا لهم فيها البيوت، ووضعوا فيها تماثيلهم التي نحتوها طبق صورهم الحقيقية أو الخيالية، وربما وجدوا قبور بعض الأولياء والصالحين حسب زعمهم، فبنوا عليها البيوت دون أن ينحتوا لهم التماثيل، ثم كانوا يقصدون هذه التماثيل وتلك القبور، فكانوا يمسحونها ويتبركون بها، ويطوفون حولها، ويقومون لها بالإجلال والتعظيم، ويقدمون إليها النذور والقرابين، ليتقربوا بها إليهم، ويبتغوا بها من فضلهم، وكانوا ينذرون لهم مما كان

يرزقهم الله من الحرث والزرع والطعام والشراب، والدواب والأنعام، والذهب والفضة والمتعة والأموال.

فأما الحرث والزرع والطعام والشراب والذهب والفضة والأمتعة والأموال فكانوا يقدمونها إلى أماكن وقبور هؤلاء الصالحين أو إلى تماثيلهم، بواسطة سدنة وحجاب كانوا يجاورون تلك القبور والبيوت، ولم يكن يقدم إليها شئ إلا بواسطتهم في معظم الأحوال .

وأما الدواب والأنعام فكان لهم فيها طرق. فربما كانوا يجعلون لها علامة في أذنها وهي البحيرة ، أو يتركونها بعد أن تلد أكثر من مرة وهي الوصيلة أو يسيبونها بأن يجعلونها سائبة لا يمسها أحد ، باسم هؤلاء الأولياء والصالحين، من أصحاب القبور أو التماثيل، تقرباً إليهم وإرضاءً لهم، فكانوا يقدسون هذه الدواب، ولا يتعرضون لها بسوء أبداً، ترتع ما شاءت، وتتجول أين شاءت ، وهي التي قال الله فيها في سورة المائدة﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ [المائدة: :103].والحام الجمل يتركونه ولا يتعرض له أحد قربة لمعبوداتهم الباطلة، وربما كانوا يذبحونها على أنصاب هؤلاء الأولياء – أي على قبورهم وأماكنهم المخصصة لهم – وربما كانوا يذبحونها في أي مكان آخر، ولكن كانوا يذكرون أسماءهم بدل اسم الله -- سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ .

وكان من جملة أعمالهم أنهم كانوا يحتفلون بهؤلاء الأولياء والصالحين مرة أو مرتين في السنة ، فكانوا يقصدون قبورهم وأماكنهم من كل جانب، فيجتمعون عندها في أيام خاصة ، ويقيمون لها أعياداً ، يفعلون فيها كل ما تقدم من التبرك والمسح والطواف وتقديم النذور والقرابين وغير ذلك، وكان كالموسم يحضره الداني والقاصي ، والشريف والوضيع، حتى يقدم كل أحد نذره ، وينال بغيته .

كان المشركون يفعلون كل ذلك بهؤلاء الأولياء والصالحين تقرباً إليهم وإرضاءً لهم، ليجعلوهم وسطاء بينهم وبين الله، وليتوسلوا بهم إلى الله، معتقدين إنهم يقربونهم إلى الله زلفى، ويشفعون لهم عند الله، ثم كانوا يدعونهم لقضاء حوائجهم ودفع كرباتهم، معتقدين

أنهم يسمعون لما قالوا ويستجيبون لما دعوا وطلب منهم، فيقضون حوائجهم ويكشفون كرباتهم، إما بأنفسهم وإما بشفاعتهم لذلك عند الله .

فكان هذا هو شركهم بالله ، وعبادتهم لغير الله ، واتخاذهم آلهة من دون الله ، وجعلهم شركاء لله ، وكان هؤلاء الأولياء والصالحون وأمثالهم هم آلهة المشركين .

فلما قام النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالدعوة إلى توحيد الله، وخلع كل ما اتخذوه إلهاً من دون الله، شق ذلك على المشركين ، و أعظموه ، وأنكروه ، وقالوا: إنها مؤامرة أريد بها غير ما يقال ، وقالوا :﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ [ص: 5-7].

ثم لما تقدمت الدعوة وقرر المشركون الدفاع عن شركهم ، والدخول في النقاش والجدال ومناظرة المسلمين ليكفوا بذلك الدعوة إلى الله ، ويبطلوا أثرها في المسلمين ، أقيمت عليهم الحجة من عدة جوانب ، فقيل لهم : من أين علمتم أن الله تعالى أعطى عباده المقربين التصرف في الكون ، وأنهم يقدرون على ما تزعمون من قضاء الحوائج وكشف الكربات ؟ هل اطلعتم على الغيب ؟ أو وجدتم ذلك في الكتاب ورثتموه من الأنبياء أو أهل العلم ؟

قال – تعالى –: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الطور: 41]، ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: 4].وقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام:148].

وكان من الطبيعي أن يعترف المشركون بأنهم لم يطلعوا على الغيب، ولا وجدوا ذلك في كتاب من كتب الأنبياء، ولا أخذوه من أهل العلم، فقالوا : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [لقمان: 21]،و ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[الزخرف: 22].

وبهذا الجواب تبين عجزهم وجهلهم معا ، فقيل لهم : إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ، فاسمعوا منه – – –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – ما يقوله ويخبر به عن حقيقة شركائكم هؤلاء:

يقول – تعالى – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[الأعراف: 194].

أي إنهم لا يقدرون على شئ مما يختص بالله – - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – كما أنكم لا تقدرون عليه ، فأنتم وهم سواء في العجز وعدم القدرة ، ولذلك تحداهم بقوله : ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: 194].

وقال – تعالى - : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13].

أي بقدر ما يكون من القشرة الرقيقة فوق النواة ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:14].

وقال- تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: 20-21].

وقال – تعالى - ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: 191-192].

وقال : ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: 3].

ثم رتب على عجز هؤلاء الآلهة ، وعدم قدرتهم على ما كانوا يزعمون ، وأن دعاءهم والرجاء منهم لغو وباطل لا فائدة فيه إطلاقاً ، وذكر لذلك بعض الأمثلة فقال – تعالى - : ﴿ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: 14].

ثم دعى المشركين إلى قليل من التفكير، وحيث إنهم كانوا يعترفون بأن الله – تعالى – هو خالق كل شيء ، وأن آلهتهم لم يخلقوا شيئاً ، ولا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً ، بل هم أنفسهم مخلوقون لله ، فقيل لهم : فكيف سويتم بين الله الخالق القادر وبين هؤلاء المخلوقين العجزة ؟ كيف سويتم بينهما في العبادة والدعاء ؟ فإنكم تعبدون الله وتعبدون هؤلاء ، وتدعون الله وتدعون هؤلاء ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:17]، فلما وجه إليهم هذا السؤال بهتوا ، وذهبت عنهم حجتهم.

ومن جهة أخرى أخذ المشركون يخوفون النبي - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - والمسلمين من آلهتهم، يقولون : إنكم أسأتم الأدب إلى آلهتنا ببيان عجزهم ، فهم سوف يغضبون عليكم ، فتهلككم أبو تخبطكم لأجل ذلك ، وهذا كما كان الأولون يقولون لرسلهم ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: 54].

ورد على ذلك بتذكير المشركين وإلزامهم بما كانوا يشاهدونه ليلاً ونهاراً ، وهي أن هذه الآلهة لا تستطيع أن تتحرك من أماكنها ، وتتقدم أو تتأخر شيئاً، أو تدفع عن نفسها شراً ، فكيف تستطيع أن تضر المسلمين وتهلكهم؟ ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: 195].

وضرب لهم بمثل هذه المناسبة بعض الأمثال الصريحة ، مثل قوله – تعالى – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[الحج: 73].

ومثل قوله – تعالى – ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41].

وبعد يأس المشركين وبطلان حجتهم قرروا إحباط الدعوة ، والصد عن سبيل الله بالضغط والقوة والعنف ، فقام كل كبير ورئيس بتعذيب من آمن من قبيلته ، وذهب جمع منهم إلى أبي طالب ليكف ابن أخيه - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - عن الدعوة إلى الله .

مرحلة تعذيب المسلمين :

فأما تعذيبهم المسلمين فقد أتوا فيه بأنواع تقشعر لها الجلود، وتتفطر منها القلوب .

● كان بلال بن رباح -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- مملوكاً لأمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يجعل في عنقه حبلاً ، ويدفعه إلى الصبيان، يلعبون به، وهو يقول: أحد أحد. وكان يخرج به في وقت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء ، وهي الرمل أو الحجر الشديد الحرارة، ثم يأمر

بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا يزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول أَحَدٌ، أَحَدٌ، ومر به أبو بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يوماً وهو يعذب فاشتراه وأعتقه لله .

● وكان عامر بن فهيرة يعذب حتى يفقد وعيه، ولا يدري ما يقول .

● وعذب أبو فكيهة – واسمه أفلح ، وكان مولى لبني عبد الدار، فكانوا يخرجونه في نصف النهار في حر شديد، وفي رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وكانوا مرة قد ربطوا رجليه بحبل، ثم جروه، وألقوه في الرمضاء، وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات ، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله .

● وكان خباب بن الأرت ممن سبي في الجاهلية ، فاشترته أم أنمار بنت سباع الخزاعية ، وكان حداداً ، فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر بمحمد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فلم يكن يزيده ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وكان المشركون أيضاً يعذبونه، فيلوون عنقه، ويجذبون شعره ، وقد ألقوه مراراً على فحم النار، ثم وضعوا على صدره حجراً ثقيلاً حتى لا يقوم .

● وكانت زنيرة أَمَةٌ رومية، أسلمت، فعذبت في الله، وأصيبت في بصرها حتى عميت، فقيل لها : أصابتك اللات والعزى ، فقالت: لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد، وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد .

● وأسلمت أم عبيس، جارية لبني زهرة ، فكان يعذبها مولاها الأسود بن عبد يغوث، وكان من أشد أعداء رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ومن المستهزئين به .

• وتذكر فيمن أسلمن وعذبن من الجواري : النهدية ، وابنتها وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، واشترى أبوبكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-هؤلاء الجواري، وأعتقهن كما أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة، وأبا فكيهة.

وقد عاتبه أبوه أبو قحافة ، وقال: أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أعتقت رجالاً جلداً لمنعوك. فقال ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: 14-6].

وهو أمية بن خلف، ومن كان على شاكلته ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: 17-21].

وهو أبوبكر الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-وعمن أعتقهم ، وعن الصحابة أجمعين - .

وعذب عمار بن ياسر وأمه وأبوه -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-وكانوا حلفاء بني مخزوم، فكان بنو مخزوم – وعلى رأسهم أبو جهل – يخرجونهم إلى الأبطح، إذا حميت الرمضاء، فيعذبونهم بحرها، ويمر بهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيقول : « صبراً آل ياسر موعدكم الجنة، اللهم اغفر لآل ياسر » .

أما ياسر والد عمار – وهو ياسر بن عامر بن مالك العنسي- المذحجي – فقد مات تحت العذاب، وأما أم عمار – وهي سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة المخزومي، وكانت عجوزاً كبيرة ضعيفة ، - فطعنها أبو جهل في قبلها بحربة، فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام.

وأما عمار فثقل عليه العذاب، فإن المشركين تارة كانوا يلبسونه درعاً من حديد في يوم صائف، وتارة كانوا يضعون على صدره صخراً أحمر ثقيلاً، وتارة كانوا يغطونه في الماء، حتى قال بلسانه بعض ما يوافقهم، وقلبه مليء بالإيمان، فأنزل الله ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106].

وعذب في الله مصعب بن عمير، كان من أنعم الناس عيشاً ، فلما دخل في الإسلام منعته أمه الطعام والشراب ، وأخرجته من البيت ، فتخشف جلده تخشف الحية .

• وعذب صهيب بن سنان الرومي ، حتى فقد وعيه ، ولا يدري ما يقول ، وعذب عثمان بن عفان، -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم أجمعين- .

وكان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أنبه، وأخزاه، وأوعده بإلحاق الخسارة الفادحة في المال والجاه، وإذا كان الرجل ضعيفاً ضربه وأغرى به، والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل في الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال .

كانت هذه الاعتداءات ضد الضعفاء المسلمين وعامتهم، أما من أسلم من الكبار والأشراف فإنهم كانوا يحسبون له حساباً، ولم يكن يجترئ عليهم إلا أمثالهم من رؤساء القبائل وأشرافها، وذلك مع قدر كبير من الحيطة والحذر .

أبو طالب وموقف المشركين من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

أما رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكان له من الشهامة والشرف والوقار ما وقاه الله به كثيراً من اعتداءات الناس، وقد كان يحوطه ويمنعه أبو طالب، وكان سيداً مطاعاً معظماً في قريش، ولا يستهان بذمته ولا تخفر، كان من ذروة بني عبد مناف، ولم تعرف لها قريش بل العرب إلا الإجلال والتكريم، فاضطر المشركون بداية بالنسبة للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى اختيار سبيل المفاوضات مع عمه أبي طالب، ولكن مع نوع من أسلوب القسوة والتحدي.

فقد مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، وقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه.

إنذار قريش وتحديهم لأبي طالب :

ولم تصبر قريش طويلاً حين رأوا النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ماضياً في عمله ودعوته إلى الله، فقد أكثروا ذكره وتذامروا فيه، ثم مشوا إلى أبي طالب، وقالوا : يا أبا طالب إن لك سنا ،

وشرفاً ، ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا .

وعظم على أبي طالب هذا التحدي والإنذار، فدعا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وذكر له ما قالوه، وقال له: أبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق، فلما رأى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضعفه قال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته. ثم استعبر وبكى. وعادت إلى أبي طالب الرقة والثقة، فقال: اذهب يا ابن أخي! فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً، وأنشد أبوطالب قائلاً:

والله لَنْ يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدعْ بأمرك ما عليك غضاضةٌ وابشرْ وقُرْ بِذاكَ مشنكَ عيونا

ولما رأت قريش أن إنذارهم لم يجد نفعاً ، والرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ماض في دعوته، وأبو طالب قائم بنصرته، ما يعني أنه مستعد لفراقهم وعداوتهم ومنازلتهم في نصرة ابن أخيه محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى لبثوا يفكرون ويتشاورون، ووصلوا إلى اقتراح غريب، فقد جاءوا إلى أبي طالب، ومعهم عمارة بن الوليد سيد شبابهم وأنهد فتى في قريش وأجمله، فقالوا: يا أبا طالب خذ هذا الفتى، فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً، فهو لك، وأسلم إلينا أبن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل .

قال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله مالا يكون أبداً .

أسئلة

س1 - تحدّث عن بداية النبوة ونزول الوحي .

س2 - اذكر أول السّابقين إيماناً بالنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

س3 - بدأ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دعوته بالأقربين ، اكتبْ ماتعرفه عن هذه المرحلة .

س4 - كيف كانت أساليب قريش في مواجهة دعوة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟

س5 - كانت لأبي طالب مواقف ضدّ كفّار قريش دافع فيها عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وضّحْ ذلك .

س6 -اذكر أسباب رفض مشركي مكة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم.



التضيق على المسلمين وبوادر الهجرة

اعتداءات على رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

ولما فشلت قريش ويئسوا ، ورأوا أن الإنذار والتحدي والمساومة لم تجد نفعاً ، بدأوا بالاعتداءات على ذات الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وزادوا في تعذيب المسلمين والتنكيل بهم.

وحيث إن الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان معززاً محتشماً محترماً، فقد تولى إيذاءه كبراء قريش ورؤساؤهم، ولم يجترئ على ذلك أذنابهم وعامتهم .

وكان النفر الذين يؤذونه في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي – وكانوا جيرانه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي ، وكان يطرحها في برمته إذا نصبت، وكانوا إذا طرحوا عليه ذلك يخرج به على العود فيقف به على بابه ويقول : يا بني عبد مناف ! أي جوار هذا ؟! ثم يلقيه في الطريق .

وكان أمية بن خلف إذا رآه همزه ولمزه. والهمز: الطعن والشتم علانية، أو كسر العينين والغمز بهما. واللمز : العيب والإغراء .

وكان أخوه أبيّ بن خلف يتوعد النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ويهدده بالقتل.

وجلس عقبة بن أبي معيط إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسمع منه، فبلغ أُبياً – وكان صديقه – فعاتبه، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ففعل .

أما أبو لهب فقد عاداه وآذاه من أول يوم ظهرت فيه الدعوة إلى الله، وكانت في عقد ابنيه عتبة وعتيبة ابنتا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رقية وأم كلثوم ، فقال لهما: رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا بنتي محمد، وقالت زوجته أيضاً: طلقاهما فإنهما قد صبأتا، فطلقاهما .

وكانت زوجة أبي لهب– وهي أم جميل أروى بنت حرب – أيضاً عدوة لدودة لرسول الله – صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – ودعوته ، فكانت تأتي بالأغصان وفيها الشوك ، فتطرحها في سبيل رسول الله – صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – بالليل ، حتى يعقر هو وأصحابه .

وسمعت بنزول ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾[المسد:1].– فجاءت وفي يدها فهر – أي ملءُ الكف من الحجارة – وهي تبحث عن رسول الله – صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – وهو جالس مع أبي بكر عند الكعبة فأخذ الله ببصرها، فلم تكن ترى إلا أبا بكر، فقالت: أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما الله أني لشاعرة ثم قالت:

مُذَمماً عَصَيْنَا * وَأَمْرَهُ أَبيْنا * ودِيْنَهُ قَلَيْنَا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ، فقال : ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها .

وكان مما تؤذي به قريش أنهم كانوا يسمون رسول الله – صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – مذمماً بدل محمد ، يشتمون بذلك ويسبون ، ولكن صرف الله ذلك عنه ، حيث إنهم كانوا يشتمون مذمما وهو محمد.

وكان الأخنس بن شريق الثقفي أيضاً ينال من رسول الله – صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – .

وأما أبو جهل فكأنه كان قد تحمل عبء الصد عن سبيل الله، وقد كان يؤذي النبي – صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – بقوله ، وينهاه عن الصلاة، ويفخر ويختال بما فعل ، حتى شدد على رسول الله – ﷺ – وتوعده في يوم رآه يصلي، فانتهره رسول الله – صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – وأخذه بخناقه، وهزه قال : ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾ [القيامة: 34-35].

فقال : تتوعدني يا محمد ! والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشى بين جبليها .

وقال أبو جهل لرفقته يوماً : واللات والعزى لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأُعَفِّرَنَّ وجهه. فأتى رسول الله – صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – وهو يصلي ليطأ رقبته فما فجأهم إلا وهو ينكص على

عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً .

وحاز مثل هذه الشقاوة عقبة بن أبي معيط، فقد كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يصلي يوماً عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم عقبة بن أبي معيط، فجاء به وانتظر، فلما سجد وضعه بين كتفيه، فجعلوا يضحكون، ويحيل (أي يميل) بعضهم على بعض، وهو ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة وطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال : « اللهم عليك بقريش ». فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ، ثم سماهم رجلاً رجلاً : « اللهم عليك بفلان وفلان»، وقد قتلوا كلهم يوم بدر .

وقد اتخذ رسول الله خطوتين هامتين بعد اشتداد أذى مشركي مكة له ولأصحابه:

الخطوة الأولى: أنه جعل دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركز الدعوة والعبادة ومقر التربية، لأنها كانت في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة، فكان يجتمع فيها مع صحابته سراً، فيتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة: وبهذا التدبير وقى أصحابَهُ كثيراً من الأحداث التي كان يخشى وقوعها لو اجتمع بهم جهراً وعلانية، أما هو - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكان يدعو الله ويدعو إليه جهراً بين ظهراني المشركين، لا يصرفه عن ذلك ظلم، ولا عدوان، ولا سخرية، ولا استهزاء.

الخطوة الثانية: أنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أشار على المسلمين أن **يهاجروا إلى الحبشة** ، بعد أن تأكد أن النجاشي ملك عادل لا يظلم عنده أحد .

الهجرة الأولى إلى الحبشة

وفي رجب سنة 5 من النبوة هاجر أول دفعة من المسلمين، وكانوا اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان الأموي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومعه زوجه رقية بنت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام.

خرج هؤلاء الصحابة سراً في ظلام الليل قاصدين ميناء شعيبة جنوب جدة، وكان من قدر الله أنهم وجدوا سفينتين تجاريتين فركبوهما حتى وصلوا إلى الحبشة .

أما قريش فلما علموا بخروجهم هاجوا وغضبوا، وأسرعوا في آثارهم حتى يلقوا عليهم القبض ، ويردوهم إلى مكة، ليواصلوا التنكيل والتعذيب، ويصرفوهم عن دين الله، ولكن المسلمين فاتوهم إلى البحر، فرجعوا خائبين بعدما وصلوا إلى الساحل .

عودة المهاجرين إلى مكة

وفي رمضان سنة خمس من النبوة أي بعد هجرة المسلمين بحوالي شهرين، خرج رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى المسجد الحرام، وحول الكعبة جمع كبير من قريش، فيهم ساداتهم وكبراؤهم ، وكانت قد نزلت عليه سورة النجم، فقام فيهم ، وأخذ يتلوها فجاءة ، وكان أروع كلام سمعوه قط ، فاندهشوا لروعة هذا الكلام، وأخذ منهم كل مأخذ، فبقوا يستمعون إليه مبهوتين ساكتين، حتى إذا تلا في خواتم السورة زواجر وقوارع طارت لها القلوب ، وتلا في الأخير ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم: 62].وخر ساجداً سجد الجميع، ولم يملكوا أنفسهم .

روى البخاري عن ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قرأ سورة النجم ، فسجد بها ، فما بقي أحد من القوم إلا سجد ، فأخذ رجل من القوم كفا من حصى أو تراب، فرفعه إلى وجهه، قال: يكفيني هذا، فلقد رأيته بعد قتل كافراً – وهو أمية بن خلف قتل يوم بدر – .

وصل هذا الخبر إلى الحبشة، ولكن في صورة تختلف عن الواقع، فقد بلغهم أن قريشاً أسلموا، فرجعوا فرحين مستبشرين إلى مكة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار عرفوا جلية الأمر، فمنهم من رجع إلى الحبشة، ومنهم من دخل مكة سراً أو في جوار أحد من قريش.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

واشتد البلاء والعذاب على المسلمين من قريش ندماً على ما فرط منهم من السجود مع المسلمين، وانتقاماً لما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره للمهاجرين، ونظراً إلى هذه الظروف القاسية أشار رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، فهاجر اثنان أو ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة ، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من الأولى؛ لأن قريشاً كانوا متيقظين يتابعون حركات المسلمين، إلا أن المسلمين كانوا أكثر منهم تيقظاً ، وأحسن منهم حكمة ، وأحكم منهم خطوة ، فقد وصلوا إلى الحبشة رغم كل الجهود .

وفد من قريش يصل الحبشة :

شقَّ على المشركون أن أفلت منهم المسلمون، ووصلوا إلى مأمن يأمنون فيه على أنفسهم وإيمانهم، فأرسلوا رجلين من وجهائهم ودهاتهم ليرجعوهم إلى مكة، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن ربيعة، وكانا إذ ذاك على الشرك .

ونزل الرجلان بالحبشة تحت خطة مدبرة، فاتصلا أولاً بالبطارقة، وساقا إليهم الهدايا، وذكرا لهم الهدف، ولقناهم الحجة، حتى وافقوهما، ثم حضرا إلى النجاشي، فقدما إليه الهدايا، ثم كلماه، فقالا :

أيها الملك: إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دينهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاؤوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من

آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلم بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه.

وأيدهما البطارقة فيما قالاه حسب الخطة ، ولكن النجاشي احتاط في الأمر ، ورأى أن يسمع القضية من الطرفين حتى يتضح له الحق، فدعا المسلمين، وسألهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

فتكلم جعفر بن أبي طالب عن المسلمين ، وقال: أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – فعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به دين الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم الله علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك ، أيها الملك !

فلما سمع النجاشي هذا ؛ طلب من جعفر قراءة شيء من القرآن ، فقرأ عليه صدراً من كهعيص – سورة مريم – فبكى النجاشي حتى اخضلت – أي ابتلت – لحيته ، وبكى الأساقفة حتى أخضلوا – أي بلوا – مصاحفهم ، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى

ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم خاطب مندوبي قريش وقال : انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون ، فخرجا .

وفي اليوم الثاني ، قال وفد قريش للنجاشي : إنهم – أي المسلمين – يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً .

فدعاهم النجاشي وسألهم عن ذلك، فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به النبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – : هو عبدالله ورسوله ، وروحه، وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: والله ماعدا – أي ما جاوز – عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. اذهبوا فأنتم شيوم – أي آمنون – بأرضي، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً – أي جبلاً – من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم .

ثم أمر برد الهدايا على مندوبي قريش فخرجا إلى قومهم، وأقام المسلمون بخير دار مع خير جار .

اشتداد التعذيب ومحاولة قتل الرسول - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -

كان من الطبيعي أن يعود المشركون إلى ضراوتهم بعد الفشل ، وفعلاً عادوا إلى الشدة والبطش بالبقية الباقية من المسلمين ، بل مدوا أيديهم إلى رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – .

فمن ذلك أن عتيبة بن أبي لهب أتى النبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – وتسلط عليه بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل في وجهه – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – إلا أن البزاق رجع على عتيبة فقال رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – : اللهم أرسل عليه كلباً من كلابك، فخرج عتيبة في ركب إلى الشام ، فلما نزلوا في الطريق طاف بهم الأسد، فقال: هو آكلي واللهِ، كما دعا محمدٌ عليَّ، قتلني وهو بمكة وأنا بالشام، فلما ناموا جعلوه في وسطهم، ولكن جاء الأسد وأخذه برأسه من بين الإبل والناس، وقتله .

ومن ذلك أن عقبة بن أبي معيط وطئ برجله على رقبة النبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – .

ثم أخذ المشركون بعد فشلهم في شتى محاولاتهم لكف الدعوة، أخذوا يفكرون بجد في قتل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولو أدى ذلك إلى سفك الدماء ، ومما يدل على ذلك أن أبا جهل قال يوما لقريش : إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشي أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، وجاء رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقام يصلي ، وغدت قريش في أنديتهم ينتظرون ما يفعله أبو جهل ، وأقبل أبو جهل حتى دنا ، ثم رجع منهزماً ، منتقعاً لونه ، مرعوباً ، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذفه من يده. فقالت له قريش: مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت لأفعل ما قلت البارحة ، فعرض لي فحل من الإبل ما رأيت مثل هامته وقصرته وأنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني .

قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « ذاك جبريل لو دنا لأخذه » .

ثم حدث ما هو أشد من ذلك وأنكى ، وذلك أن قريشاً اجتمعوا يوماً في الحطيم ، وتكلموا في رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبدأ يطوف بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ، فَعُرِف ذلك في وجهه ، ثم مر بهم الثانية ، فغمزوه بمثلها ، فَعُرِف ذلك في وجهه ، ثم مر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها ، فوقف ، ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش : أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح، فأخذت القوم كلمته، كأن على رؤوسهم طائراً وقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاءة ليرفؤه(أي يسكنه ويرفق به) بأحسن ما يجد .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره ، إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، فأخذوا بمجامع ردائه ، وقالوا : أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباءنا ؟ قال : أنا ذاك ، فانقضوا عليه ، هذا يحثه ، وأقبل عقبة بن أبي معيط فلوي ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ،

وأتى الصريخ إلى أبي بكر : أدرك صاحبك، فجاء وأخذ بمكنبي عقبة ودفعة عن النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأخذ يضرب هذا ، ويجاهد هذا ، وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، فانصرفوا عن رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى أبي بكر ، وضربوه ضرباً لا يعرف وجهه من أنفه ، فحملته بنو تيم في ثوب وأدخلوه منزله ، ولا يشكّون في موته، فتكلم آخر النهار، فسأل عن رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فلاموه ، وخرجوا من عنده ، وعرض عليه الطعام والشراب فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يرى رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فلما هدأ الليل وسكن الناس أوصلوه إلى رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو في دار الأرقم ، فلما وجده بخير ساغ له الطعام والشراب .

وفي أثناء هذه الظروف القاسية التي كان يمر بها رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمسلمون حدث ما أفضى إلى إسلام بطلين جليلين من أبطال قريش طالما استراح المسلمون بإسلامهما ، وهما : حمزة بن عبد المطلب عم الرسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعمر بن الخطاب -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا- .

إسلام حمزة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-

أما إسلام حمزة فسببه أن أبا جهل مر يوماً برسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو عند الصفا ، فنال منه وآذاه ، ويقال إنه ضربه بحجر في رأسه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فشجه ، ونزف منه الدم ، ثم انصرف إلى نادي قريش عند الكعبة، وجلس معهم، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان تنظر ما حدث من مسكن لها على الصفا، وبعد قليل أقبل حمزة من الصيد متوشحاً قوسه، فأخبرته الخبر ، فخرج حمزة يسعى حتى قام على أبي جهل وسبه وقال له : تشتم ابن أخي، وأنا على دينه ، ثم ضربه بالقوس ، فشجه شجه منكرة ، وثار لحيان : بنو مخزوم وبنو هاشم ، فقال أبو جهل : دعو أبا عمارة – أي حمزة – فإني سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وكان حمزة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-أعز فتىً في قريش، وأقواهم شكيمة، حتى سمي أسد الله، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة .

إسلام عمر -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- ورد فعل المشركين

بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة أسلم عمر بن لخطاب -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- وذلك أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد أن يقتل النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - فلقيه رجل، فقال: أين تعمد يا عمر ! قال : أريد أن أقتل محمداً ، قال : كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة، وقد قتلت محمداً ؟ قال عمر: ما أراك إلا قد صبوت ؟ قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر ؟ إن أختك وزوجها قد صبوا، فمشى مغضباً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما صحيفة فيها طه، فلما سمع حس عمر توارى في البيت، وسترت أخت عمر الصحيفة، فلما دخل، قال : ما هذه صبوتما ؟ فقال له زوجها : يا عمر ! أرأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر عليه ، فوطئه وطأ شديداً، فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده فدمى وجهها ، فقالت وهي غضبى: يا عمر إن كان الحق في غير دينك. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فاستحى عمر وندم، قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه، فقالت أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ثم أخذ الكتاب فقرأه :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فقال : أسماء طيبة طاهرة ، ثم قرأ طه حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: 14].فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ دلوني على محمد .

وخرج خباب فقال : أبشر يا عمر ! فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - لك يوم الخميس – وكان قد دعا النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - تلك الليلة : اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام – ثم ذكر له خباب أن رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - في دار الأرقم التي في أصل الصفا .

فخرج عمر حتى أتى الدار وضرب الباب، فأطل رجل من صرير الباب فرآه متوشحاً السيف، فأخبر رسول الله - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - واستجمع القوم ، فقال حمزة : مالكم ؟ قالوا : عمر. فقال : وعمر، افتحوا له الباب ، فإن يريد الخير بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه. ورسول الله - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - داخل يوحى إليه ، ثم خرج فأخذ بمجامع ثوب عمر وحمائل سيفه – وهو في الحجرة – فجبده بشدة ، وقال : أما تنتهي يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ ثم قال : اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد.

كان عمر -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-ذا شكيمة لا يرام، فلما أسلم ذهب إلى أشد قريش عداوة لرسول الله - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - وإيذاء للمسلمين ، وهو أبو جهل ، فدق بابه ، فخرج ، وقال: أهلاً وسهلاً ما جاء بك ؟ قال: جئتك لأخبرك أني آمنت بالله ورسوله محمد، فأغلق الباب في وجهه، وقال: قبحك الله ، وقبح ما جئت به ، وذهب عمر إلى خاله العاص بن هشام فأعلمه فدخل البيت.

وذهب إلى جميل بن معمر الجمحي – وكان أنقل قريش لحديث –فأخبره أنه أسلم ، فنادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر : كذب ، ولكني قد أسلمت.

عزة الإسلام والمسلمين بإسلام عمر

وجد المسلمون عزة وقوة كبيرة بإسلام عمر، فقد كانوا قبل ذلك يصلون سراً ، فلما أسلم عمر قال : يا رسول الله ألسنا على الحق وإن متنا وإن حيينا ؟ قال : بلى ، قال : فيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ، فخرجوا به في صفين، حمزة في أحدهما وعمر في الآخر، لهم كديد ككديد الطحين ، حتى دخلوا المسجد الحرام، فلما نظرت إليهما قريش أصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، ولذلك سمي الفاروق .

قال بن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ، وقال ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر .

وقال صهيب : لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقاً ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلط علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتي به .

مساومات قريش للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

ما رأى المشركون قوة المسلمين وشوكتهم بعد إسلام حمزة وعمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- اجتمعوا لشورى بينهم، وليفكروا في أنسب خطوة يقومون بها في أمر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمسلمين، فقال لهم عتبة بن ربيعة— من بني عبد شمس بن عبد مناف، وكان سيداً مطاعاً في قومه — يا معشر قريش ! ألا أقوم لمحمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ! فقم إليه فكلمه ، فذهب إلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو جالس في المسجد وحده . فقال : يا ابن أخي ! إنك من حيث قد علمت، من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ--: « قل يا أبا الوليد أسمع » .

فقال: يا ابن أخي ! إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ--: « أو قد فرغت يا أبا الوليد » !

قال : نعم .

قال : « فاسمع مني » .

قال : أفعل .

فقرأ رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ⑤ ﴾ [فصلت: 1-5].

ومضى رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقرأها عليه ، وهو يستمع منه، وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، فلما بلغ رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: 13].

وضع عتبة يده على فم رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وناشد الله والرحم مخافة أن يقع في ذلك، وقال : حسبك .

ولما انتهى رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى السجدة سجد ، ثم قال : « سمعت يا أبا الوليد» ؟

قال : سمعت .

قال : « فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعوني واجعلوا لي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه، فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد .

قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

ولما فشل المشركون في هذا الإغراء والترغيب، فكروا في المساومة في الدين ، فقالوا له : - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - نعرض عليك خصلة واحدة لك فيها صلاح .

قال : « وما هي » ؟

قالوا : تعبد آلهتنا سنة. ونعبد إلهك سنة، فإن كنا على الحق أخذت حظاً ، وإن كنت على الحق أخذنا منه حظاً ، فأنزل الله – تعالى - : ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾ [الكافرون: 1-2].

إلى آخر السورة ، وأنزل : ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: 64].

وأنزل أيضاً: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: 66].

وبهذه المواقف الصارمة تبين للمشركين أن النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - قائم بالدعوة إلى الدين، وليس بتاجر حتى يقبل المساومة أو التنازل في الثمن، فأرادوا التأكد من ذلك عن طريق أخرى ، فأرسلوا إلى يهود يسألونهم عن أمر النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - فقالت لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث، فإن أخبر فهو نبي مرسل، وإلا فهو متقول . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان أمرهم ؟ فإن لهم حدثياً عجبا ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هي ؟

فسألت عظماء قريش رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - عن ذلك، فنزلت سورة الكهف فيها قصة أولئك الفتية، وهم أصحاب الكهف، وقصة ذلك الرجل الطواف، وهو ذو القرنين .

ونزل في سورة الإسراء الرد على سؤالهم عن الروح ، وهو قوله تعالى :﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 85].

وكان هذا الاختبار يكتفي لاقتناع قريش بأن محمداً - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - رسول حقاً ، لو أرادوا الحق ، ولكن أبي الظالمون إلا كفوراً .

مقاطعة مشركي مكة لبني هاشم (الصحيفة)

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل ، ووجدوا بني هاشم وبني المطلب مصممين على حفظ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والقيام دونه كائناً ما كان ، فاجتمعوا في خيف بني كنانة ليدرسوا الموقف الراهن ، ويقضوا فيه ، فاستشاروا ثم استشاروا حتى وصلوا إلى حل غاشم تحالفوا عليه، وهو أنهم لا يناكحون بني هاشم وبني المطلب ، ولا يبايعونهم، ولا يجالسونهم ، ولا يخالطونهم ، ولا يدخلون في بيوتهم ، ولا يكلمونهم ، ولا يقبلون منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا إليهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للقتل.

تحالفوا على هذا القرار، وكتبوا بذلك(**صحيفة**)علقوها في جوف الكعبة وكان الذي كتبها بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فشلت يده أو بعض أصابعه .

وانحاز بعد ذلك بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب، سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم – إلا أبا لهب – وقطعت عنهم الميرة والمادة. ومنع التجار من مبايعتهم ، فجهد القوم حتى أكلوا أوراق الشجر، والجلود ، وواصلوا الضر والفاقة، حتى سمعت أصوات النساء والصبيان يتضاغون جوعاً، ولم يكن يصل إليهم شيء إلا سراً، فكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحاً إلى عمته خديجة – -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- – أما هم فكانوا لا يخرجون من الشعب إلا في الأشهر الحرم، فكانوا يشترون من العير التي تأتي من الخارج، إلا أن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في الثمن حتى لا يستطيعوا الشراء.

وكان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على رغم كل ذلك مستمراً في دعوته إلى الله ولا سيما في أيام الحج حينما كانت القبائل العربية تفد إلى مكة من كل صوب .

نقض الصحيفة وفك الحصار

وبعد نحو ثلاث سنوات قدر الله أن ينتهي هذا العدوان، فألقى في قلوب خمسة من أشراف قريش أن يقوموا بنقض الصحيفة وفك الحصار، وأرسل الأرضة، فأكلت كل ما في الصحيفة من القطيعة والجوار، ولم تترك إلا ذكر الله - -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فأما أشراف قريش الخمسة فأولهم : هشام بن عمرو بن الحارث من بني عامر بن لؤي ، ذهب هذا الرجل إلى زهير أبن أبي أمية المخزومي – وهو ابن عاتكة عمة النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، ثم إلى المطعم بن عدي، ثم إلى أبي البختري بن هشام، ثم إلى زمعة بن الأسود. فذكر كل واحد منهم بالقرابة والرحم، ولامهم على قبول الجور، وحضهم على نقد الصحيفة، فاجتمعوا عند خطم الحجون، واتفقوا على خطة يقومون بها لنقض الصحيفة .

وصباحاً حين قامت أندية قريش في المسجد الحرام جاء زهير وعليه حلة، فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة ! نحن نأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى ، لا يبيعون ولا يبتاعون ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة .

فقال أبو جهل : كذبت، والله لا تشق .

فقال زمعة : أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت .

فقال أبو البختري : صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ، ولا نقربه .

وقال المطعم بن عدي : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها .

وصدقه أيضاً هشام بن عمرو .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضي بليل. وتُشُوّور فيه بغير هذا المكان .

وكان أبو طالب جالساً في ناحية المسجد، جاء ليخبرهم أن النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أخبره أن الله سلط على صحيفتهم الأرضة ، فأكلت ما فيها من جور وقطيعة وظلم ، ولم تترك إلا ذكر الله ، وقال بعدما أخبرهم بذلك : فإن كان كاذباً خلينا بينكم وبينه ، وإن كان صادقاً رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا. قالوا : أنصفت .

وقام المطعم على إثر رده على أبي جهل ليشق الصحيفة ، فوجدها قد أكلتها الأرضة ، إلا « باسمك اللهم » وما فيها من اسم الله. فكان ما أخبر به النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - آية من آيات الله رآها المشركون بأعينهم، لكنهم لم يزالوا مسترسلين في الغي .

أما الحصار فقد انتهى بعد ذلك، وخرج رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومن معه من الشعب .

وفد قريش بين يدي أبي طالب:

عادت الأمور بعد فك الحصار إلى ما كانت عليه من قبل، ولكن ما هي إلا أشهر حتى لحق أبا طالب المرض. وأخذ يشتد ويزداد، وكان قد جاور الثمانين ، فشعرت قريش أنه لا قيام له من هذا المرض، فاستشاروا فيما بينهم وقالوا: انطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ عن ابن أخيه وليعطه منا، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه شيء فتعيرنا به العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه ، فانطلقوا ودخلوا عليه وطلبوا منه أن يكف هو رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن آلهتهم، وهم يدعونه وإلهه، فدعاه أبو طالب وعرض عليه ما قاله القوم، فقال رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية ، ففزعوا وقالوا : كلمة واحدة ؟ نعم ! وأبيك عشراً، فما هي ؟ قال: لا إله إلا الله، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ص: 5].

وفاة أبي طالب :

اشتد المرض بأبي طالب حتى حضرته الوفاة. ودخل عليه رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « أي عم ! قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله »، فقالا: يا أبا طالب ! أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر ما قال: على ملة عبد المطلب .

فقال النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « لأستغفرن لك مالم أنه عنك» فنزلت :﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[التوبة: 113].

وكانت وفاته سنة عشر من النبوة، وذلك بعد الخروج من الشعب بستة أشهر، وقد كان عضداً لرسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وحصناً احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأجداد فلم يفلح وكان من أهل النار .

قال العباس للنبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : ما أغنيت عن عمك ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك. قال : « هو في ضحضاح من النار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار ».

وفاة أم المؤمنين خديجة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-:

توفيت أم المؤمنين خديجة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- وذلك في رمضان من نفس السنة العاشرة بعد وفاة أبي طالب بقليل ، وكانت وزير صدق لرسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على الإسلام ، آزرته على إبلاغ الرسالة ، وآسته بنفسها ومالها ، وقاسمته الأذى والهموم .فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قالت ، قال – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولدها إذ حرمني أولاد النساء ».

وورد في فضائلها أن جبريل -- عَلَيْهِ السَّلَامُ أتى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال : يا رسول الله ! هذه خديجة قد آتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فأقرئ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب .

وكان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يذكرها دائماً ، ويترحم عليها ، وتأخذ به الرأفة والرقة لها كلما ذكرها ، لما لها من مناقب جمة وفضائل كثيرة .

واشتد البلاء على رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من قومه بعد موت عمه أبي طالب وزوجة خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فقد تجرؤوا عليه، وكاشفوه بالأذى.

زواجه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بسودة ثم بعائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-

وفي شوال – بعد الشهر الذي توفيت فيه خديجة – تزوج رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بسودة بنت زمعة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- وكانت تحت ابن عمها : السكران بن عمرو -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وكانا من السابقين الأولين إلى الإسلام. وقد هاجرا إلى الحبشة، ثم رجعا إلى مكة، فتوفي بها السكران بن عمرو، فلما حلت تزوجها النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

أما زواجه بعائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فكان أيضاً في شهر شوال ولكن بعد سودة بسنة، تزوجها بمكة وهي بنت ست سنين، ودخل بها في المدينة في شهر شوال في سنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين، وكانت أحب أزواجه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إليه، وأفقه نساء الأمة وهي الطاهرة المطهرة الصديقة، لها مناقب جمة وفضائل كثيرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- وأرضاها .

مقدم الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى الطائف ثم خروجه منها

وفي هذه الظروف قصد رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الطائف رجاء أن يستجيبوا لدعوته، أو وينصروه ، فخرج إليها ماشياً على قدميه، ومعه مولاه **زيد بن حارثة**، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام حتى بلغ الطائف، ونزل على ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف ، فدعاهم إلى الإسلام وإلى نصرته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على تبليغه ، فلم يستجيبوا له ، بل ردوا

عليه أسوء رد ، فتركهم وقصد الآخرين ، ودعاهم إلى قبول الإسلام ونصرته ، ولم يزل ينتقل من رئيس إلى رئيس ، فلم يترك أحداً من أشرافهم إلا وكلمه ، وقضى في ذلك عشرة أيام ، لكن لم يجب له أحد، بل قالوا له: اخرج من بلدنا، وأغروا به صبيانهم وسفهاءهم وعبيدهم ، فلما تهيأ وخرج وقفوا له في صفين، وأخذوا يسبونه ويشتمونه ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه وقدميه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وحتى اختضب نعلاه بالدم، وكان زيد بن الحارثة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقيه بنفسه ، ويدافع عنه حتى انصرفوا عنه .

ثم خرج رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الطائف ، وتقدم في طريقه إلى مكة ، وهو محزون مما حصل له بالطائف ، حتى إذا بلغ قرن المنازل، أظلته سحابة فيها جبريل ومعه ملك الجبال، فرفع - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رأسه ، فناداه جبريل ، قال: أن الله بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، ثم سلم ملك الجبال وقال : يا محمد ! ذلك، فما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين – وهما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله – ، فقال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

وأفاق رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من همه بمجيء هذا النصر، وتقدم في طريقه إلى مكة حتى نزل بنخلة، وأقام بها أياماً ، وأثناء إقامته بها صرف الله إليه نفراً من الجن يستمعون القرآن ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين، وقد آمنوا به، ولم يشعر بهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى نزل بذلك القرآن: آيات من سورة الأحقاف، وآيات من سورة الجن .

وبعد أيام خرج رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من نخلة يريد مكة، وهو يرجو من الله الفرج والمخرج، ويخشى من قريش الشر والبطش ، فأحب أن يحتاط لنفسه ، فلما دنا من مكة مكث بحراء ، وبعث رجلاً إلى بن شريق ليجيره ، فأعتذر بأنه حليف، والحليف لا يجير، فأرسل إلى سهيل بن عمرو، فاعتذر بأنه من بني عامر بن لؤي، وهم لا يجيرون على بني كعب بن لؤي، فأرسل إلى المطعم بن عدي، وهو من بني نوفل بن عبد مناف أخي هاشم بن عبد مناف جد

النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعبد مناف أعز بطن في قريش، فقال المطعم: نعم، وتسلح هو وبنوه، ثم أرسل إلى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فجاء ودخل المسجد الحرام، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، ثم انصرف إلى بيته، والمطعم بن عدي وأولاده محدقون برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالسلاح. وكان المطعم قد أعلن في قريش أنه أجار محمداً، فقبلوا ذلك منه .

جدال المشركين للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وطلبهم الآيات

وكان من جملة جدال المشركين أنهم كانوا يطلبون من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الآيات تعجيزاً وعناداً، وقد تكرر ذلك منهم مراراً في أوقات مختلفة ، فمن ذلك أنهم اجتمعوا مرة في المسجد الحرام ، واستشاروا بينهم ، ثم أرسلوا إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك .

وحيث إن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان حريصاً على رشدهم غاية الحرص ، كما قال الله- تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6].

فقد جاءهم سريعاً يرجو إسلامهم، فقالوا: إنك تخبرنا أن الرسل كانت لهم آيات، كانت لموسى عصا، ولثمود الناقة، وكان عيسى يحيي الموتى، فأتنا بآية كما أرسل الأولون.

وكانوا يظنون أن من خواص الرسل أنهم يقدرون على إحداث مثل هذه الخوارق والمعجزات متى شاءوا ، كما يقدر عامة الناس على أعمالهم الطبيعية .

ثم بين الله — - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — أنه لو أراهم وأظهر لهم ما طلبوه من الآيات لا يؤمنون به. مع كونهم قد أقسموا بالله جهد أيمانهم ليؤمنن به، فقال﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ [الأنعام: 111].

وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 31].

شق القمر : كأن قريشاً لما رأوا أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يجبهم إلى ما اقترحوه من الآيات الخاصة ظنوا أن طلب الآيات أحسن وسيلة لتعجيزه وإسكاته. ولإقناع عامة

الناس بأنه متقول، وليس برسول ، فتقدموا خطوة أخرى ، وقرروا أن يطلبوا منه آية بغير تعيين، ليتبين للناس عجزه، فلا يؤمنوا به، فجاءوا إليه ، وقالوا له: هل من آية نعرف بها أنك رسول الله ؟

فسأل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ربه أن يريهم آية، فأراهم القمر قد انشق فرقتين: فرقة فوق الجبل – أي جبل أبي قبيس – وفرقه دونه ، حتى رأوا حراء بينهما، فقال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « اشهدوا » .

ورأت قريش هذه الآية جهاراً، بوضوح ، ولوقت طويل ، فسقط في أيديهم وبهتوا ، ولكنهم لم يؤمنوا ، بل قالوا: هذا سحر ابن أبي كبشة ، لقد سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان قد سحركم فإنه لا تستطيع أن يسحر الناس كلهم، فانتظروا ما يأتيكم به السفار، فجاء السفار فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأيناه. ولكن قريشاً مع ذلك أصروا على كفرهم واتبعوا أهواءهم .

حادثة الإسراء والمعراج

المراد بالإسراء توجه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ليلاً من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، والمراد بالمعراج صعوده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى العالم العلوي، وكان ذلك بجسده الشريف وروحه الأطهر .

والإسراء مذكور في القرآن في قوله – تعالى - : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

واختلف في وقت الإسراء والمعراج، فقيل : هو السنة التي بعث فيها النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقيل : سنة خمس من النبوة . وقيل: في 27 رجب سنة عشر من النبوة . وقيل : في 17 رمضان سنة اثنتي عشرة من النبوة . وقيل : في المحرم ، وقيل : في 17 ربيع الأول سنة 13 من النبوة .

أما تفصيل القصة فملخص الروايات الصحيحة: أن جبريل -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جاء بالبراق – وهو دابة فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه – والنبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالمسجد الحرام ، فركبه حتى أتى بيت المقدس ومعه جبريل، فربطه بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخل المسجد ، فصلى فيه ركعتين، أم فيهما الأنبياء، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاختار اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة ، هديت وهديت أمتك، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له ، فرأى هنالك آدم أبا البشر فسلم عليه ، فرد -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج على السماء الثانية فاستفتح له جبريل ففتح ، فرأى فيها أبني الخالة يحيى بن زكريا-- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وعيسى ابن مريم -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسلم عليهما ، فردا عليه ورحبا به وأقرا بنبوته .

ثم عرج إلى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان قد أعطى شطر الحسن، فسلم عليه ، فرد عليه، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسلم عليه ، فرد عليه ، ورحب به ، وأقر بنوبته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسلم عليه فرد عليه ، ورحب به، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى بن عمران -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسلم عليه – فرد عليه ، ورحب به، وأقر بنبوته..

ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقي فيها إبراهيم -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسلم عليه ، فرد عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته ، وكان مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وهو بيت يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه .

ثـم رفـع إلى سـدرة المنتهـى، وعنـدها توقـف جبريـل -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فعـرج برسـول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى الجبار -جَلَّ وَعَلَا-، فدنا منه حتى سمع صريف الأقـلام وكلمـه ربـه ولم يـره، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وقد سئل رسـول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كـما في صـحيح مسـلم عـن أبي ذر أنه سأل رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « هل رأيت ربك ، فقال :نور أنى أراه » أي حـال بيني وبين رؤيته النور كما في لفـظ آخـر : « رأيـت نـوراً»، وفـرض الله عليـه وعـلى أمتـه خمسـين صلاة في كل يوم وليلة ، فرجع حتى مر على موسى فقـال : بـم أمـرك ربـك ؟ قـال : بخمسـين صلاة ، قال : أمتك لا تطيق ذلـك، ارجـع إلى ربـك فاسـأله التخفيـف ، فالتفـت إلى جبريـل ، فأشار أن نعم إن شئت ، فرجع فوضع عنه عشراً ،ثـم مـر بموسـى فسـأله فـأخبره فأشـار عليـه بسؤال التخفيف ، فلم يـزل يـتردد بـين موسـى وبـين الله -عَزَّوَجَلَّ- حتـى جعلهـا خمسـاً، ثـم مـر بموسى فأشار بالرجوع وسؤال التخفيف ، وقال : لقد راودت بني إسرائيل على أدنى من هذا فضعفوا عنه وتركوه ، فقال- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : قد استحييت من ربي، ولكنـي أرضى وأسـلم، فنودي أن قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، هي خمس (في الفرض) وهن خمسـون (في الأجر)، لا يبدل القول لدي .

ثم رجع -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ليلته إلى مكة المكرمة، فلما أصبح في قومه أخـبرهم بـما أراه الله - عَزَّوَجَلَّ- من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم وأذاهم له، فمنهم من صفق، ومنهم من وضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وسعى رجال إلى أبي بكر الصديق، وأخـبروه الخـبر، فقـال : إن كـان قال ذلك فقد صدق، قالوا : أتصدقه على ذلك ؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك، أصـدقه على خبر السماء في غدوة أو روحة ، فسمي الصديق .

وقام الكفار يمتحنونه فسألوه أن يصف لهم بيت المقدس ، ولم يكن رآه قبل ذلك ، فجلاه الله له حتـى عاينـه ، فطفـق يخـبرهم عـن آياتـه ، يصـفه لهـم بابـاً بابـاً وموضـعاً موضـعاً ، فلـم يستطيعوا أن يردوا عليه ، بل قالوا : أما النعت فو الله لقد أصاب .

وسألوه عن عير لهم قادمة من الشام، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ووقت قدومها ، وعن البعير الذي يقدمها ، وكان الأمر كما قال ، ولكن أبى الظالمون إلا كفورا .

وصبيحة يوم الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كيفية الصلوات الخمس وأوقاتها، وكانت الصلاة قبل ذلك ركعتين في الصباح، وركعتين في السماء .

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

كان من دأب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - منذ أمره الله بالجهر بالدعوة أنه كان يخرج في موسم الحج أيام أسواق العرب إلى منازل القبائل فيدعوهم إلى الإسلام .

وممن أتاهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ودعاهم إلى الإسلام، وعرض عليهم نفسه ليؤوه وينصروه: بنو عامر بن صعصعة. وبنو محارب بن خصفة، وبنو فزارة، وغسان، ومرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب له منهم أحد .

ولكنهم اختلفوا في أساليب ردودهم : فمنهم من رد عليه رداً جميلاً ، ومنهم من اشترط لنفسه أن تكون له الرئاسة بعده ، ومنهم من قال : أسرتك وعشيرتك أعلم بك ، حيث لم يتبعوك ، ومنهم من رد عليه رداً قبيحاً ، وكان بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب أقبحهم رداً .

وقدر الله أن يؤمن رجال من غير أهل مكة في الزمن الذي كانت الدعوة تمر فيه بأصعب مراحلها في مكة ، ومن هؤلاء الرجال :

1 - **سويد بن الصامت** – كان شاعراً لبيباً ، من سكان يثرب ، يسمى بالكامل ، لشرفه وشعره . أتى مكة حاجاً أو معتمراً . فدعاه رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى الإسلام ، فأسلم

2 - **أبو ذر الغفاري** –**هو جندب بن جنادة** الذي مدحه الرسول بالصدق ودعا له وقال فيه: ((**ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر**» بلغ إليه خبر مبعث

النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بسبب إسلام سويد بن الصامت، فأرسل أخاه إلى مكة ليأتي بالخبر، فذهب ورجع، ولم يشفه، فخرج بنفسه حتى نزل بمكة في المسجد الحرام ، وبقي فيه نحو شهر، يشرب ماء زمزم وهو طعامه وشرابه، ولا يسأل عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أحداً خوفاً على نفسه، ثم استتبعه علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-حتى دخل به على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فطلب منه أبو ذر أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه فأسلم مكانه، ثم جاء إلى المسجد الحرام وقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فانقضت عليه قريش، وضربوه ليموت فأنقذه العباس، ورجع أبو ذر إلى مساكن قومه بني غفار ودعاهم فأسلم والبعض الآخر قالوا لا نسلم حتى يأتينا رسول الله . فلما هاجر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى المدينة جاءهم فأسلموا وجاءته قبائل أسلم كذلك فأسلموا فقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « غفار غفر الله لها ، وأسلم سلمها الله ».

3 - **طفيل بن عمرو الدوسي** – كان شاعراً لبيباً، رئيس قبيلته دوس في ناحية اليمن. قدم مكة سنة 11 من النبوة. فاستقبله أهل مكة، وحذروه من النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى حشا أذنه الكرسف حين جاء إلى المسجد الحرام ، كي لا يسمع منه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - شيئاً ، وكان - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قائماً يصلى عند الكعبة، فوقع في أذنه منه شئ ، فاستحسنه ، فقال في نفسه: إني لبيب وشاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان حسناً قبلته ، وان كان قبيحاً تركته .

فلما انصرف النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى بيته تبعه حتى دخل بيته، وذكر قصته، وطلب منه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يعرض عليه أمره ، فعرض عليه الإسلام ، وتلا عليه القرآن فأسلم وشهد شهادة الحق، وقال : إني مطاع في قومي، وراجع إليهم ، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية ، فدعا له ، فلما قرب من قومه استنار وجهه كالمصباح ، فدعا الله أن يجعله في غير وجهه ، فتحول النور إلى سوطه ، فلما دخل على قومه دعاهم إلى الإسلام ، فأسلم أبوه

وزوجته ، وأبطأ القوم ، لكنه لما هاجر إلى المدينة بعد الحديبية كان معه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه .

4- **ضماد الأزدي** – من أزد شنوءة من اليمن، كان يرقي من الجنون والجن والشياطين. فجاء مكة فسمع سفهاء يقولون: إن محمداً مجنون ، فجاء ليرقيه. فقال النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : إن الحمد لله ، نحمده ، و نستعينه ، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد.

فاستعاد ضماد هذه الكلمات ثلاث مرات، ثم قال: سمعت قول الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، لقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه .

الإسلام يدخل المدينة(يثرب)

جاء ستة من أهل يثرب كلهم من الخزرج إلى الحج وهم:

- أسعد بن زرارة .
- عوف بن الحارث بن رفاعة (عوف بن عفراء)
- رافع بن مالك بن العجلان .
- قطبة بن عامر بن حديدة .
- عقبة بن عامر بن نابي .
- جابر بن عبدالله بن رئاب .

جاء هؤلاء للحج في جملة من جاء سنة 11 من النبوة ، وكان أهل يثرب يسمعون من اليهود حينما ينالون منهم في الحرب ونحوها، أن نبياً سيبعث الآن، قد أظل زمان بعثته، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كانوا بعقبة منى مر بهم رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ليلاً ، وهم يتكلمون، فلما سمع الصوت عمدهم حتى لحقهم، وقال : من أنتم ؟ قالوا : نفر من

الخزرج . قال : موالي اليهود ؟- أي حلفاؤهم – قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا :بلى ! فجلسوا معه ، فشرح لهم حقيقة الإسلام ، وتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله – -عَزَّوَجَلَّ- – فقال بعضهم لبعض: تعملون والله إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأسرعوا إلى الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ووعدوه القيام بالدعوة إلى دينه، والمقابلة في الحج القادم .

بيعة العقبة الأولى

فلما كان حج العام المقبل – سنة 12 من النبوة – قدم اثنا عشر رجلاً، منهم عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس وهما أبو الهيثم بن التيهان و عويم بن ساعدة، فأما العشرة من الخزرج فخمسة منهم هم الذين جاءوا في الماضي غير جابر بن عبدالله بن رئاب وخمسة آخرون وهم عبادة بن الصامت ومعاذ بن الحارث وذكوان بن عبد القيس ويزيد بن ثعلبة والعباس بن عبادة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- أجمعين .

واجتمع هؤلاء برسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعقبة منى ، فعلمهم الإسلام، وقال لهم : تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فستره الله ، فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه ، فبايعوه على ذلك .

فلما رجعوا إلى يثرب بعث معهم مصعب بن عمير -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-ليقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، ونزل مصعب بن عمير على أبي أمامة أسعد بن زرارة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، ونشطا في نشر الإسلام.

وأسلم على أيديهما رئيس الأوس سعد بن معاذ وابن عمه أسيد بن خضير -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا-، ثم رجع سعد بن معاذ إلى قومه، فقال : يا بني عبد الأشهل ! كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً . قال. فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، إلا رجل واحد اسمه الأصيرم ، وتأخر إسلامه إلى يوم أحد ، ثم أسلم وقتل شهيداً في سبيل الله قبل أن يسجد لله سجدة ، وعاد مصعب بن عمير إلى مكة قبل حلول موعد الحج يحمل بشائر مثل هذا الفوز .

بيعة العقبة الثانية

وفي موسم الحج سنة 13 من النبوة قدم كثير من أهل يثرب من المسلمين والمشركين. وقد قرر المسلمون أن لا يتركوا رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - بمكة يطوف في جبالها، ويطرد ويخاف ، فاتصلوا به سراً، واتفقوا على عقد اجتماع سري في أوسط أيام التشريق ليلاً في الشعب الذي عند جمرة العقبة .

فلما جاء الموعد ناموا في رحالهم مع قومهم، حتى إذا مضى ثلث الليل الأول أخذوا يتسللون، فيخرج الرجل والرجلان حتى اجتمعوا عند العقبة، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً ، اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان : نسيبة بنت كعب من بني نجار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة، وجاءهم رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ومعه عمه العباس بن عبد المطلب. كان على دين قومه، ولكن أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له .

وكان العباس أول من تكلم وكان لايزال على دين قومه، فقال لهم : إن رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - لا يزال في عز من قومه ومنعة في بلده، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإلا فمن الآن فدعوه.

فأجاب المتكلم عنهم – وهو البراء بن معرور – وقال: نريد الوفاء والصدق وبذل الأرواح دون رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - فتكلم يا رسول الله ! فخذ لنفسك ولربك ما أحببت

، فتكلم رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فتلا القرآن ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام واشترط لربه: أن يعبدوه وحده ، ولا يشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسه ولربه أيضاً، أنهم قالوا له على ما نبايعك ؟ فقال: على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ، ولكم الجنة ، وفي رواية عن عبادة (بايعناه) على أن لا ننازع الامر أهله ، فأخذ بيده - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - البراء بن معرور وقال : نعم ، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع عنه أزرنا ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة – أي السلاح – ورثناها كابراً عن كابر، فاعترض القول أبو الهيثم بن التَّيِّهَان ـ والبراء يكلم رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فقال : يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله إن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ثم قال : « بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الْهَدْمُ، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم» ومعنى ذلك أن رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يذكرهم بالقرابة والجوار والنصرة التي كانت منهم رضوان الله عليهم فأنتم مني وأنا منكم دمي هو دمكم أسالم من تسالمون وأحارب من تحاربون.

وفي هذه اللحظة الحاسمة تقدم العباس بن عبادة بن نضلة وقال: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فإنه خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه ، على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله ! قال : الجنة ، قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده، فقاموا ليبايعوه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة، وقال : رويداً يا أهل يثرب ! إنا نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن

إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله، قالوا : يا أسعد ! أمط عنا يدك، فو الله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، فقاموا إليه رجلاً رجلاً وبايعوه، وكان أسعد بن زرارة هو أول المبايعين على أرجح الأقوال. وقيل: بل أبو الهيثم بن التيهان، وقيل: بل البراء بن معرور .

وأما بيعة المرأتين فكانت قولاً بدون مصافحة ، لأن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يصافح النساء، ونهى الرجال عن مصافحة النساء غير المحارم وبين لهم حرمة ذلك فعن معقل بن يسار يقول : قال رسول الله صلى الله عليه سلم : لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له» .

قال العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» وهذا سند جيد ،رجاله كلهم ثقات من رجال الشيخين، وقال الألباني -رَحِمَهُ اللَّهُ- : وفي الحديث وعيد شديد لمن مس امرأة لا تحل له ، ففيه دليل على تحريم مصافحة النساء لأن ذلك مما يشمله المس دون شك، والأحاديث في هذا الباب صريحة على تحريم مصافحة المرأة الأجنبية.

وبعد البيعة طلب منهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يخرجوا اثني عشر نقيباً يكونون عليهم، ويكفلون المسؤولية عنهم، فخرجوا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس.

- أما من الخزرج فهم :

1- سعد بن عبادة بن دليم .

2- أسعد بن زرارة بن عدس .

3- سعد بن الربيع بن عمرو .

4- عبدالله بن رواحة بن ثعلبة .

5- رافع بن مالك بن العجلان .

6- البراء بن معرور بن صخر .

7- عبدالله بن عمرو بن حرام .

8- عبادة بن الصامت بن قيس .

9- المنذر بن عمرو بن خنيس .

- وأما من الأوس فهم :

10- أسيد بن حضير بن سماك .

11- سعد بن خيثمة بن الحارث .

12- رفاعة بن عبد المنذر بن زبير – وقيل : أبو الهيثم بن التيهان .

فلما تم اختيارهم قال لهم رسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي ، قالوا : نعم .

هذه هي بيعة العقبة الثانية، وكانت حقاً أعظم بيعة وأهمها في حياة الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تغير بها مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ ، إذ بدأت الهجرة من مكة إلى المدينة فبدأت فرادى ثم جماعات ثم هجرة الصادق المصدوق نبينا محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وصاحبه الصديق أبو بكر الصديق -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-وأرضاه وما تخلل ذلك من أحداث مهمة كما سيتضح في موضعه.

أسئلة

س1 – اتخذ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عدة خطوات بعد اشتداد أذى مشركي مكة عليه وعلى أصحابه ، تحدّث عنها.

س2 – تحدّث عن الهجرة الأولى للحبشة .

س3 – تحدّث عن الهجرة الثانية للحبشة – وجهود كفار قريش لرد المهاجرين إلى مكة .

س4 – اكتبْ مذكرة مختصرة عن :

أ – إسلام حمزة –رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ–.

ب – إسلام عمر –رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ–ورد فعل المشركين.

س5 – كيف كانت مساومات كفار قريش للنبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – والمسلمين بعد إسلام حمزة عمر –رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا– ؟

س6 – تحدث عن مقاطعة مكة لبني هاشم ، وكيف تم نقض الصحيفة وفك الحصار ؟

س7 – متى كان خروج النبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – إلى الطائف ، وكيف كان موقفهم من دعوته ؟

س8 – تحدث باختصار عن :

أ – حادثة الإسراء والمعراج .

ب – انشقاق القمر .

س9 – تحدث عن ممهدات بيعة العقبة الأولى .

س10 – اكتب باختصار عن بيعة العقبة الثانية .



الوحدة الثانية

- العهد المدني

أولا: (مقدمات الهجرة النبوية):

ثانيا:(وصول النبي ﷺ للمدينة وأهم أعماله فيها)

ثالثا:(السرايا والغزوات)

رابعا:(البيت النبوي الطاهر والشمائل المحمدية)

(مقدمات الهجرة النبوية)

رؤيا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قبل هجرته للمدينة

بعد هذه البيعة – بيعة العقبة الثانية – بدأت هجرة عامة المسلمين إلى المدينة، بينما كان بعض الصحابة قد هجر قبلها، وقد أري رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دار هجرة المسلمين وأخبرهم بها، قال : « رأيت أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلي – أي ظني – إلى اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»، وفي رواية: «أريت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرتين، فإما أن يكون هجر أو يثرب».

وأول من هاجر أبو سلمة المخزومي زوج أم سلمة، خرج مع زوجته وابنه، فمنعها قومها منه، وانتزع آل أبي سلمة ولده منها. فانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، وذلك قبل بيعة العقبة بنحو سنة ثم أطلقوا زوجته بعد نحو سنة فلحقت به ، وهاجر بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة وزوجته ليلى بنت أبي حثمة، وعبدالله بن أم مكتوم.

تتابع المسلمون في الهجرة، وكانوا يتسللون خفية، وخشية قريش، حتى هاجر عمر بن الخطاب، فخرج علنا، وتحدى قريشاً فلم يجترئ أحد على الوقوف في وجهه، وقدم المدينة في عشرين من الصحابة ، وهاجر المسلمون كلهم إلى المدينة، ورجع إليها عامة من كان بأرض الحبشة، ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعلي وصهيب وزيد بن حارثة وقليل من المستضعفين الذين لم يقدروا على الهجرة.

وتجهز أبو بكر للهجرة، فقال رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : نعم. فحبس أبو بكر نفسه عليه ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ، استعداداً لذلك.

تأمر قريش في دار الندوة على قتل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

جن جنون قريش لما رأوا أن المسلمين وجدوا دار حفظ ومنعة، ورأوا في هجرتهم واجتماعهم بالمدينة خطراً على دينهم وكيانهم وتجارتهم، فاجتمعوا في دار الندوة صباح يوم الخميس 26 من شهر صفر سنة 14 من النبوة، وليدرسوا خطة تفيد التخلص من هذا الخطر خاصة وأن صاحب الدعوة - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يزال في مكة، ويخشى أن يخرج منها في عشية أو ضحاها، وقد حضر الاجتماع وجوه بارزة من سادات قريش. وحضره أيضاً إبليس في صورة شيخ جليل من أهل نجد بعد أن استأذنهم ، وطرحت القضية على المجتمعين، فقال أبو الأسود نخرجه من أرضنا، ونصلح أمرنا، ولا نبالي أين ذهب .

قال الشيخ النجدي: إنكم ترون حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال، فإذا خرج فلا غرو أن يحل على حي من العرب فتجتمع حوله الجموع، فيطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد. أروا فيه رأيا غير هذا.

قال أبو البختري: احبسوه وأغلقوا عليه الباب، حتى يدركه ما أدركه الشعراء قبله من الموت .

قال الشيخ النجدي : والله لئن حبستموه ليخرجن أمره إلى أصحابه، وهم يفضلونه على الآباء والأبناء، فأوشكوا أن يثبوا عليكم، وينزعوه منكم، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوا على أمركم ، فانظروا في غير هذا الرأي.

فقال أبو جهل: إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسبياً وسيطاً فينا، ونعطي كلا منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه ويضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فيفترق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم، فيرضون بالدية فنعطيها لهم .

قال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل : هذا الرأي الذي لا أري غيره .

وأقر المجتمعون هذا الرأي، وانفضوا ، واخذوا يستعدون ويرتبون أنفسهم لتنفيذ هذا القرار.

وكان هذا مكراً من قريش، وعند الله مكرهم، فخيبهم من حيث لا يشعرون، فقد نزل جبريل وأخبر النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بمؤامرة قريش وأن الله أذن له في الهجرة، وحدد له وقت الخروج، وبين له خطة الرد على مكر قريش فقال: «لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه» .

وخرج رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، في نحر الظهيرة، حين يستريح الناس في بيوتهم، إلى بيت أبي بكر الصديق -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-وأبرم معه أمور الهجرة، فجهزا الراحلتين إلى بيت أبي بكر الصديق -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-واستأجرا عبدالله بن أريقط الليثي – وكان على دين قريش – ليكون دليلاً لهما في الطريق، وكان هادياً ماهراً بالطرق، وواعداه جبل ثور بعد ثلاث ليال. ثم استمر رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في أعماله اليومية حسب المعتاد، حتى لم يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة أو لأي أمر آخر اتقاء مما قررته قريش .

وكان من عادة الرسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن ينام في أوائل الليل بعد صلاة العشاء، ويخرج في النصف الأخير من الليل إلى المسجد الحرام، ويصلي فيه صلاة التهجد – قيام الليل – فأضجع علياً -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-على فراشه تلك الليلة، وأخبره بأنه لا يصيبه مكروه، فلما نام عامة الناس وهدأ الليل جاء المتآمرون سراً إلى بيت رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وطوقوه ، ورأوا على بن أبي طالب -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- نائماً على فراشه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - متسجياً ببرده الحضرمي الأخضر، فظنوه محمداً - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأخذوا يختالون زهواً، ويرصدونه حتى إذا قام وخرج وثبوا عليه .

وكان هذا جواب مكرهم من الله - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

هجـــرة النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

خروجه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من البيت :

وخرج رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من بيته وهم مطوقون به، فذر تراب البطحاء على رؤوسهم، وهو يتلو قوله - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس: 9].

فأخذ الله بأبصارهم فلم يشعروا به - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومضى رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى بيت أبي بكر، ومن خوخة في داره خرجا حتى لحقا بغار ثور قبل بزوغ الفجر،

ولما انتهيا إلى الغار دخله أبو بكر أولاً حتى إذا كان فيه شيء يصيبه هو دونه رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكسحه ووجد فيه ثقوباً فسدها بشق إزاره، وبقى جحر أو جحران ألقمهما رجليه، ثم دخل رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فنام في حجره ، ولدغ أبو بكر في رجله، ولكنه لم يتحرك لمكان رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فذهب الألم .

وكمنا في الغار ثلاث ليال، وكان عبدالله بن أبي بكر يبيت عندهما، وكان شاباً فطناً ذكياً، فيخرج من عندهما حتى يصبح في قريش كأنه بات بمكة، وكان يسمع مكائد قريش وأخبارهم فكان يأتيهما بها حين يختلط الظلام ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى الغنم، فكان يأتيهما بها حين تذهب ساعة من الليل. فيبيتان في لبنها ، ثم ينعق بها في غلس، ويتبع بها أثر عبدالله بن أبي بكر ليعفي عليه .

أما قريش فبقيت فتيانها منتظرين قيام رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وخروجه حتى أصبحوا، فلما أصبحوا قام علي من فراش رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فسقط في أيديهم وسألوه عن رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال : لا علم لي به ، فضربوه وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة، ولكن بدون جدوى. ثم جاءوا إلى البيت أبي بكر وسألوا ابنته أسماء عنه

فقالت: لا أدري، فلطمها الخبيث أبو جهل لطمة طرح منها قرطها. ثم أرسلوا الطلب في كل جهة، وجعلوا مائة ناقة عن كل واحد منهما لمن يأتي بهما حيين أو ميتين .

وقد وصلوا في الطلب إلى باب الغار بحيث لو طأطأ أحدهم رأسه ونظر إلى قدميه لرأهما، حتى اشتد حزن أبي بكر -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- على رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، فقال : ما ظنك يا أبو بكر باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا .

-التوجه إلى المدينة :

في ليلة الاثنين غرة ربيع الأول سنة 1هـ جاء الدليل عبدالله بن أريقط الليثي بالراحلتين إلى جبل ثور حسب الموعد، فارتحل رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - وأبو بكر، وصحبهما عامر بن فهيرة، وسلك بهما الدليل في اتجاه الجنوب نحو اليمن حتى أبعد ، ثم اتجه إلى الغرب نحو ساحل البحر الأحمر، ثم اتجه إلى الشمال على مقربة من الساحل، وسلك طريقاً لا يسلكه الناس إلا نادراً .

وفي الطريق مرا بخيمتي أم معبد الخزاعية عند مكان يقال له قديد، فسألاها هل عندها شيء ؟ فاعتذرت عن القرى وأخبرت أن الشاء عازب – أي بعيدة المرعى والكلأ – وكانت في جانب الخيمة شاة خلفها الجهد عن قطيع الغنم، ولم تكن فيها قطرة من لبن ، فاستأذن رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ليحلبها، فلما حلبها درت باللبن حتى امتلأ منه إناء كبير يحمله الرهط بمشقة، فسقاه أم معبد حتى رويت، ثم سقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب ، ثم حلب فيه ثانياً، حتى ملأ الإناء، وتركه عندها وارتحلوا .

وجاء زوجها فتعجب حين رأى اللبن، وسألها عنه ، فأخبرته الخبر ، ووصفت النبي- صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - من مفرقه إلى قدمه ومن كلامه إلى أطواره وصفاً دقيقاً جداً ، فقال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش ، ولقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا.

ثم لما جاوزا قديداً تبعهما سراقة بن مالك بن جعشم المد لجي، على فرس له ، طمعا في جائزة قريش ، فلما دنا منهم عثرت به فرسه حتى خر عنها ، حتى إذا دنا منهم بحيث يسمع قراءة رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو لا يلتفت، وأبوبكر يكثر الالتفاف، ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الركبتين وخر عنها، ثم زجرها فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة صار لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، وعلم أن أمر رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سيظهر، فناداهم بالأمان، فوقفوا حتى جاءهم ، فأخبر النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بما قررته قريش، وما يريد بهما الناس، وعرض عليه الزاد والمتاع فلم يأخذ منه شيئاً، وطلب منه أن يخفي أمره عن الناس، واستكتبه سراقة كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة

فكتبه في أديم فدعا له النبي صلى الله عليه وفي رواية أن النبي صلى عليه وسلم قال لسراقة:(كيف بك إذا لبست سواري كسرى وتاجه).فلما فتحت فارس و المدائن و غنم المسلمون كنوز كسرى أتى أصحاب رسول الله بها بين يدي عمر بن الخطاب وهو الخليفة آنذاك -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- ، فأمر عمر بأن يأتوا له بسراقة و قد كان وقتها شيخاً كبيراً قد جاوز الثمانين من العمر ، و كان قد مضى على وعد رسول الله له أكثر من خمس عشرة سنة فألبسه سواري كسرى و تاجه و كان رجلاً كثير شعر الساعدين فقال له أرفع يديك وقل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة ، وهذا من دلائل نبوته - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما في البخاري.

ورجع سراقة فقال لمن وجده في الطلب: قد استبرأت لكم الخبر، قد كفيتم ما ههنا شيء حتى أرجعهم .

وفي الطريق لقيه بريدة بن الحصيب الأسلمي -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-في سبعين راكبا فأسلم هو ومن معه، وصلوا خلفه صلاة العشاء الآخرة ، ولقيهما في بطن ريم – اسم واد– الزبير بن العوام في ركب من المسلمين كانوا قافلين من الشام، فكساهما الزبير ثياباً بياضاً .

-النزول بقباء :

وفي يوم الاثنين – الثامن من شهر ربيع الأول سنة 14 من النبوة – وهي السنة الأولى من الهجرة – نزل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقباء .

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يخرجون كل غداة إلى الحرة، حتى يردهم حر الظهيرة. فانقلبوا يوماً بعد طول الانتظار، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب! هذا جدكم – أي حظكم – الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، وسمعت فيهم الوجبة والتكبير فرحاً بقدوم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وخرجوا للقائه بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء، ولما نزل بقباء جلس صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يحيى أبا بكر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-ظنا منه أنه هو الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لظهور الشيب في شعره – حتى أصابت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الشمس، فظلل عليه أبو بكر بردائه، فعرف الناس رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

ونزل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقباء على كلثوم بن الهدم، وقيل: على سعد بن خيثمة، ومكث بها أربعة أيام، أسس أثناءها مسجد قباء، وصلى فيه، فلما كان اليوم الخامس – يوم الجمعة – ركب بأمر الله، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى أخواله بني النجار، فجاءوا متقلدين السيوف، فسار نحو المدينة، وهم حوله وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فجمع بهم في بطن الوادي، وهم مائة رجل.

-الدخول في المدينة :

ثم اتجه نحو المدينة، وقد زحف الناس للاستقبال، وارتجت البيوت بالتحميد ، وكان رسول الله - صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام ناقته يقولون: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فلما وصلت الناقة إلى موضوع المسجد النبوي بركت، فلم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول فنزل عنها، فجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - فأدخل رحله في بيته، فجعل رسول الله - صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: المرء مع رحله، وأخذ أسعد بن زرارة بزمام راحلته فكانت عنده.

وسابق سراة الأنصار في استضافة رسول الله - صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكانت الجفان تأتيه منهم كل ليلة، فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع منها .

هجرة آل بيته وآل بيت أبي بكر إلى المدينة

ومكث علي بن أبي طالب -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- بمكة بعد النبي - صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثلاثاً، وأدى ودائع كانت عند رسول الله - صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لأهل مكة، ثم خرج ماشياً على قدميه حتى لحق رسول الله - صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقباء ، ونزل على كلثوم بن الهدم .

ولما استقر رسول الله - صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة، فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتي النبي - صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبأم المؤمنين سودة بنت زمعه زوجته، و أمه أم أيمن، وأسامة بن زيد. وخرج معهم عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر: أم رومان، وأسماء، وعائشة، -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وعنهن أجمعين — فنزلوا عند حارثة بن النعمان.

-مناخ المدينة :

ولما نزل المهاجرون بالمدينة أصابهم هم حزن، لفراقهم أرضهم وديارهم التي نشأوا بها وترعرعوا فيها فأخذوا يذكرون تلك الأرض ويحنون إليها، وزاد ذلك شدة أن المدينة كانت

بها حمى ، فلما نزلوا بها أصابتهم حمى ، فدعا النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ربه - عَزَّ وَجَلَّ - وقال: « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها، وبارك في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة » ، وأجاب الله دعاه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فاستراح المسلمون من الأمراض، وأحبوا المدينة .

أسئلة

س1 –كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم بناء على رؤية رءاها، وضح ذلك.

س2 –بين كيفية تآمر كفار قريش لقتل النبي صلى الله عليه وسلم قُبيل هجرته للمدينة.

س3 –صف كيفية خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

س4 –استنتج الأحداث البارزة التي واجهت النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

س5 –اكتب ملخصاً عاماً عن أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل دخوله إلى المدينة.



وصول النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للمدينة

وأهم أعماله فيها

ولما استقر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالمدينة بدأ الاهتمام بعدة أمور إلى جانب استمراره في الدعوة إلى الله وأول هذه الأمور:

بناء المسجد النبوي :

وأول خطوة اتخذها في هذا السبيل هو بناء المسجد النبوي، واشترى لذلك الأرض التي بركت بها ناقته، وكانت لغلامين يتيمين، وكانت مائة ذراع في مائة ذراع تقريباً، وفيها قبور المشركين، وخرب ونخل وشجرة من غرقد فنبشت القبور، وسويت الخرب، وقطعت الشجرة والنخل، وصفت في قبلة المسجد، وجعل الأساس قريباً من ثلاثة أذرع، وأقيمت الحيطان من اللبن والطين، وجعلت عضادتا الباب من الحجارة، والسقف من الجريد، والعمد من الجذوع، وفرشت الأرض بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وكانت القبلة في الشمال إلى بيت المقدس.

وكان الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ينقل الحجارة واللبن مع المهاجرين والأنصار ، ويرتجز ويرتجزون ، فيزيدهم ذلك نشاطاً .

وبنى بجانب المسجد حجرتين بالحجارة واللبن، وسقفهما بالجريد والجذوع، إحداهما لسودة بنت زمعة، والثانية لعائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- بعد قدومها قريباً في شوال سنة 1هـ.

-فرضية الأذان :

وبدأ المسلمون يحضرون للصلوات الخمس في جماعة، ويتحينون أوقاتها، فيتعجل بعضهم ويتأخر البعض ، فاستشار النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمسلمون في علامة يعرفون بها حضور الصلاة ، فأشار بعضهم برفع النار ، وبعضهم بالنفخ في البوق ، وبعضهم بضرب الناقوس، فقال عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أولا تبعثون رجلاً ينادي بـ« الصلاة جامعة » فقبل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هذا الرأي وعمل به ، ثم أن عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري - رضي الله عنه -

رأى الأذان في المنام فجاء وأخبر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال : إنها لرؤيا حق ، وأمره أن يلقي على بلال حتى ينادي بها ، لأنه أندى صوتاً منه ، فأذن بلال ، وسمع صوته عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فجاء يجرر رداءه وقال : وقال : والله لقد رأيت مثله ، فتأكد بذلك الرؤيا ، وصار الأذان أحد شعار الإسلام منذ ذلك اليوم .

-المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

كان من سجايا الأنصار وكرمهم أنهم كانوا يتنافسون في إنزال المهاجرين واستضافتهم في بيوتهم، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الحشر:

ثم زاد النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هذا الحب والإيثار قوة بعقد المؤاخاة بينهم وبين المهاجرين، فجعل كل أنصاري ونزيله أخوين، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، فآخى بينهم على المؤاساة، وأنهم يتوارثون فيما بينهم بعد الموت، دون ذوي الأرحام، ثم نسخ التوارث وبقيت المؤاخاة، وكانت قد عقدت في دار أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-وعنهم أجمعين -.

وكان من حب الأنصار لإخوانهم المهاجرين أنهم عرضوا نخيلهم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ليقسم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين ، فأبى، فقالوا : إذن تكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة فقبلوا ذلك .

وكان سعد بن الربيع أكثر الناس مالاً، فقال لأخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف: أقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك ، فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال عبدالرحمن : بارك الله في أهلك ومالك، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، وما هي إلا أيام حتى اكتسب مالاً ، وتزوج امرأة من الأنصار .

كانت هذه المؤاخاة ربطاً بين فرد من المهاجرين وبين فرد من الأنصار، وحيث إن المسلمين صاروا – بعد اجتماعهم بالمدينة – أمة مستقلة فقد كانوا في حاجة إلى تنظيم اجتماعي، وإلى تعريف بالواجبات والحقوق الاجتماعية ، وإلى إبراز النقاط التي تجعلهم أمة واحدة مستقلة عن الآخرين .

-العهد أو الكتاب(الصحيفة) بين سكان المدينة :

وكانت في المدينة طائفتان أخريان سوى المسلمين، تختلفان عنهم في العقيدة والدين، والمصالح والحاجات ، والعواطف والميول ، وهم المشركون واليهود ، فعقد النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيما بين المسلمين ميثاقاً، وفيما بينهم وبين المشركين وفيما بينهم وبين اليهود ميثاقاً آخر، وكتب بذلك كتاباً عرف(بالصحيفة أو الكتاب) قرر فيه :

1 – أن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس.

2 – وأن أداء ديتهم وفداء أسيرهم بين المؤمنين يكون حسب العرف السابق، وأنهم ينصرون المؤمنين في الفداء والدية .

3 – وأنهم يقومون ضد المفسد والباغي والظالم كيد واحدة، ولو كان ولد أحدهم .

4 – وأنه لا يقتل مؤمن مؤمناً بكافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن .

5 – وأن ذمة الله واحدة، فيجير عليهم أدناهم .

6 – وأن من تبع المسلمين من اليهود فله النصر والأسوة.

7 – وأن سلم المسلمين واحدة.

8 – وأن من قتل مؤمناً قصداً يقتص منه، إلا أن يرضى ولي المقتول، ويجب على المؤمنين أن يقوموا ضد القاتل

9 – وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثاً أو يؤويه .

10–وأنهم إذا اختلفوا في شيء فإن مرده إلى الله ورسوله .

زيادة على هذا الميثاق بين النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للمسلمين حق الأخوة الإسلامية في أوقات ومناسبات شتى، وحضهم على التعاون والتناصر ، والتعاضد والتكاتف ، والمؤاساة وإسداء الخير ، حتى سمت هذه الأخوة إلى أعلى قمة عرفها التاريخ .

وأما المشركون فكانوا على وشك الانهيار، حيث أسلمت أغلبيتهم مع ساداتهم وكبرائهم، فلم يكن في استطاعتهم الوقوف في وجه المسلمين، فأخذ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عليهم : « أنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن» وبذلك انتهى ما كان يخشى منهم .

وأما اليهود فقد تم الاتفاق بينهم وبين النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على الأمور الآتية :

1- أنهم أمة مع المؤمنين ، ولهم دينهم وللمسلمين دينهم ، وعليهم نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم.

2- وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وعلى من دهم يثرب ، كل يدافع عن جهته.

3- وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

4- وأن المرء لا يؤخذ بإثم حليفه .

5- وأن النصر للمظلوم .

6- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

7- وأن يثرب حرام لأهل هذه الصحيفة .

8- وأن ما يكون بينهم من حدث أو اشتجار فإن مرده إلى الله ورسوله .

9- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

10–وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم .

وبهذا الميثاق حددت ما للمسلمين من واجبات وحقوق، وما للمشركون واليهود من سكان يثرب من واجبات وحقوق ، وأصبحت المدينة وضواحيها دولة ذات استقلال وسيادة ، والكلمة النافذة فيها للمسلمين ، ومردها الى رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - .

ونشط رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - وتبعه المسلمون في الدعوة إلى الله ، فكان يحضر مجالس المسلمين وغير المسلمين ، يتلو عليهم آيات الله ، ويدعوهم إلى الله ، ويزكي من آمن منهم بالله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة .

- تسمية المدينة :

* سميت المدينة في الصحيفة بيثرب ولكن فيما بعد كره الله ورسوله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - هذا الاسم فاستبدلت بها أسماء غيرها.

* روى مسلم في صحيحه عن جابر -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-أنه قال: سمعت رسول الله- صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - يقول: «**إن الله تعالى سمّى المدينة: طابة**».

* روى الطيالسي بإسناده أنهم كانوا يسمون المدينة بيثرب فسماها رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - طيبة.

* عن أبي هريرة -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-أن رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - قال: «**على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال**»[1]

* وروى السيوطي وابن شيبة بإسناده إلى أبي أيوب الأنصاري -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-أن رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - نهى أن يُقال للمدينة يثرب.

* قال ابن حجر -رَحِمَهُٱللَّهُ-: «سبب كراهة تسمية المدينة بيثرب لأن يثرب؛ إما من التثريب الذي هو توبيخ والملامة أو من الثرب وهو الفساد وكلاهما مستقبح وكان-

[1] رواه البخاري.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يحب الاسم الحسن ويكره القبيح».

* قال الشيخ محمد بن عثيمين -رَحِمَهُ اللَّهُ -: «المدينة يقال لها المدينة النبوية ؛لأن هذا ما يصفها به السلف ولأنه أشرف لها بنسبتها إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ».

مكائد المشركين لدعوة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالمدينة والإذن بالقتال

وبينما كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يرتب أمور المدينة وينظم جوانب الحياة فيها ، ويرجو أن يجد فيها هو والمسلمون مكاناً آمناً يعلمون فيه بدينهم بغير معارضة أو استفزاز إذ فوجئوا بمكائد قريش تريد القضاء عليهم .

فمنها أنهم كتبوا إلى مشركي يثرب يحرضونهم على قتال المسلمين وإخراجهم عن المدينة ، ويهددونهم بقتل مقاتلتهم واستباحة نسائهم إن لم يفعلوا ذلك، وفعلاً قام مشركوا يثرب لينفذوا ذلك، ولكن أتاهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فوعظهم ونصحهم فكفوا عما أرادوا من القتال وتفرقوا .

ومنها أن سعد بن معاذ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-رئيس الأوس ، ذهب إلى مكة معتمراً ، فطاف بالبيت ، ومعه أبو صفوان أمية بن خلف ، فلقيهما أبو جهل ، فلما عرف سعداً هدده وتوعده وقال : تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة ، وأما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، وكان هذا إعلاناً عن صد المسلمين عن المسجد الحرام، وعن قتلهم إذا وجدوا في حدود قريش .

وكانت لقريش صلة بيهود يثرب، وكانت اليهود تقوم بنبش الأحقاد والضغائن القديمة بين الأوس والخزرج ويحرشونهم ويحاولون إثارة القلق والاضطراب فيما بينهم .

وهكذا أحاط الخطر بالمسلمين في المدينة من الداخل والخارج ، ووصل الأمر إلى أن الصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ-لم يكونوا يبيتون إلا ومعهم السلاح، ولم يكونوا يصبحون إلا فيه، وكانوا يحرسون رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة:67].

فقال - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله -عَزَّوَجَلَّ-) .



بداية نزول الشرائع بعد أن استقر الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالمدينة

لما استقر بالمدينة أمر ببقية شرائع الإسلام مثل : الزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد والآذان أي لما هاجر من مكة إلى المدينة واستقر بها وفشا التوحيد ودان به وأقاموا الصلاة أمر ببقية شرائع الإسلام التي تَعَبَّدَ الله خلقه بها ، إذ عامة شرائع الإسلام لم تشرع إلا في المدينة إذ في مكة دعا إلى التوحيد نحو عشر سنين ، ثم بعد ذلك فرضت عليه الصلوات الخمس في مكة وصلى فيها ثلاث سنين ، ثم هاجر إلى المدينة ولم تفرض عليه الزكاة ولا الصيام ولا الحج ولا غيرها من شعائر الإسلام ، وذهب بعض أهل العلم إلى أن الزكاة فرضت أولاً في مكة وفي المدينة قدرت الأنصباء وقدر الواجب وأستدل هؤلاء بأنه جاءت آيات توجب الزكاة في سورة مكية مثل قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 141].ومثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: 24-25].وعلى كل حال فاستقرار الزكاة وتقدير أنصابها وما يجب فيها وبيان مستحقيها كان في المدينة ، وكذلك الأذان والجمعة ، والظاهر أن الجماعة كذلك لم تفرض إلا في المدينة ؛ لأن الأذان الذي فيه الدعوة للجماعة فرض في السنة الثانية ، فأما الزكاة والصيام فقد فرضا في السنة الثانية من الهجرة ، وأما الحج فلم يفرض إلا في السنة التاسعة على القول الراجح من أقوال أهل العلم وهو قول الجمهور ، وذلك حين كانت مكة بلد إسلام بعد فتحها في السنة الثامنة من الهجرة ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شرائع الإسلام : كبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وأداء الأمانات ، وسائر مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال كما هو معروف من شريعته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وهذه الشعائر الظاهرة كلها فرضت في المدينة بعد استقرار النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيها وإقامة الدولة الإسلامية فيها، أخذ على هذا عشر سنين وبعدها توفي صلوات الله وسلامه عليه، بعد ما أكمل الله به الدين ، وبلغ البلاغ المبين وأتم به النعمة على المؤمنين ، كما سيتضح لاحقاً.

-الإذن بالقتال :

وفي هذه الظروف الخطيرة أنزل الله تعالى الإذن بقتال قريش، ثم تطور هذا الإذن مع تغير الظروف حتى وصل إلى مرحلة الوجوب، وجاوز قريشاً إلى غيرهم، ولا بأس أن نبين تلك المراحل بإيجاز قبل أن ندخل في ذكر الأحداث .

1- المرحلة الأولى: اعتبار مشركي قريش محاربين، لأنهم بدأوا بالعدوان، فحق للمسلمين أن يقاتلوهم، ويصادروا أموالهم، دون غيرهم من بقية مشركي العرب .

2- قتال كل من تمالأ من مشركي العرب مع قريش، واتحد معهم، وكذلك كل من تفرد بالاعتداء على المسلمين من غير قريش .

3- قتال من خان أو تحيز للمشركين من اليهود الذين كان لهم عقد وميثاق مع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ونبذ ميثاقهم إليهم على سواء .

4- قتال من بادأ بعداوة المسلمين من أهل الكتاب، كالنصارى، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

5- الكف عمن دخل في الإسلام مشركاً كان أو يهودياً أو نصرانياً أو غير ذلك، فلا يتعرض لنفسه وماله إلا بحق الإسلام وحسابه على الله .

أسئلة

س1 – ناقش مايأتي:

أ-بناء المسجد النبوي.

ب-فرضية الآذان.

س2-ماالأسس التي تمت عليها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

س3-حدد أهم الأسس التي تضمنتها وثيقة المدينة بين المسلمين والكفار واليهود.

س4-وضح أهم مراحل الآذن بالقتال ضد المشركين.



(البعوث والسرايا
والغزوات)

تقدم أن رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والمسلمين كانوا آخذين بالحيطة والحذر من بداية أمرهم ، وذلك بالحراسة والمبيت بالسلاح ، فلما نزل الإذن بالقتال أخذ رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يرتب البعوث والسرايا، ويؤمر عليها أحداً من أصحابه، وهي المسماة بالسرية، وربما خرج فيها بنفسه، وهي المسماة بالغزوة، وكان المقصود منها :

1 – استكشاف حركات العدو، وتأمين أطراف المدينة، حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة .

2 – الضغط على قريش بالتعرض لقوافلهم حتى يشعروا بالخطر على تجارتهم وأموالهم وأنفسهم، فإما أن يفيقوا عن غيهم، ويسالموا المسلمين ويتركوهم على حريتهم في نشر الإسلام والعمل به – وهذا غاية ما كان يتمناه المسلمون – أو يختاروا طريق الحرب والقتال فيخسروا أولاً طريق تجارتهم؛ لأنها كانت تمر بأطراف المدينة، وثانياً يلقوا جزاء شرهم وعدوانهم بإذن الله ونصره لعباده المؤمنين، وهذا الذي وقعت الإشارة إليه في كلام الله – – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مراراً .

3 – عقد مواثيق التحالف أو عدم الاعتداء، مع قبائل أخرى .

4 – إبلاغ رسالة الله ، ونشر دعوة الإسلام قولاً وعملاً .

مقدمة في البعوث والسرايا والغزوات

أطلق المؤرخون اسم (**الغزوة**) على المجموعة أو الجيش من المسلمين الذي يقوده النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

واسم (**السريّة**) على المجموعة أو الجيش من المسلمين الذي يقوده أحد أفراد المسلمين والمجموعة القليلة منها تسمى (بعث) وذلك للاستطلاع.

كانت أول الخطوات في هذا الميدان إرسال سرايا وبعوث لسيطرة على خطوط والطرق التجارية شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً وعزل قريش عن الإمداد من القوافل من الشام والهدف هزُّ اقتصاد قريش وإضعاف حلفائهم من بعض القبائل.

شارك النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في حياته قائداً في 28 معركة:

- المعارك في السنة الثانية للهجرة: «الأبواء- بواط - العشيرة - سفوان - بدر الكبرى- بنو سليم- بنو قينقاع - السويق) ثماني معارك.

- المعارك في السنة الثالثة للهجرة: «ذو أَمَر - بُحران- أُحد - حمراء الأسد» أربع معارك.

-المعارك في السنة الرابعة للهجرة: «بنو النضير- بدر الموعد» معركتان.

- المعارك في السنة الخامسة للهجرة: «دومة الجندل - بنو المصطلق – الأحزاب - بنو قريظة» أربع معارك.

- المعارك في السنة السادسة للهجرة: «بنو لحيان - الحديبية» معركتان.

- المعارك في السنة السابعة للهجرة: «الغابة – خيبر - ذات الرقاع - عمرة القضاء» أربع معارك.

- المعارك في السنة الثامنة للهجرة: «فتح مكة – حنين- الطائف» ثلاث معارك.

– المعارك في السنة التاسعة للهجرة: «تبوك» معركة واحدة.

– وبلغت عدد البعوث والسرايا 38 ما بين بعثٍ وسرية.

وهذه نبذ مختصرة عن كل سرية بعثها رسول الله أو غزوة من غزواته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مرتبة على حسب وقائعها في السنوات الهجرية من الأولى حتى التاسعة من الهجرة النبوية :

أولاً : السرايا في السنة الأولى من الهجرة النبوية

-سرية سيف البحر :

وأول سرية بعثها رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سرية تسمى (**بسيف البحر**)[2] بعثها في رمضان في السنة الأولى من الهجرة ، وأمر عليها عمه حمزة بن عبد المطلب، وكان قوامها ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وقد واصلوا سيرهم حتى بلغوا إلى سيف البحر – أي ساحل البحر الأحمر – من ناحية العيص، واعترضوا عيراً لقريش، قادمة من الشام، عليها أبو جهل، في ثلاثمائة رجل، فاصطف الفريقان ، وكاد يقع القتال ، لكن توسط مجدي بن عمرو الجهني ، فانصرف الفريقان .

كانت هذه السرية أول عمل عسكري في تاريخ الإسلام، وكان لواؤها أبيض، وهو أول لواء عقد في تاريخ الإسلام : وحمل اللواء أبو مرثد كناز بن حصين الغنوي .

ثم تتابعت البعوث والسرايا فأرسل في شوال عبيدة بن الحارث في ستين رجلاً من المهاجرين إلى بطن رابغ ، فلقي أبا سفيان وهو في مائتي رجل، فوقع الترامي دون القتال .

ثم أرسل في ذي القعدة سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً من المهاجرين إلى الخرار قريباً من رابغ فلم يلق كيداً .

---

[2] السيف ، بكسر السين معناه : الساحل .

ثانيا: الغزوات في السنة الثانية من الهجرة النبوية

-غزوة الأبواء:

ثم خرج رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بنفسه إلى الأبواء أو ودان في صفر سنة 2هـ في سبعين رجلاً من المهاجرين، فلم يلق أحداً وعقد ميثاق الأمان والتناصر مع عمرو بن مخشى الضمري. وكانت أول غزوة خرج لها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

-غزوة بواط:

ثم خرج إلى بواط من ناحية رضوى، في ربيع الأول سنة 2هـ في مائتين من المهاجرين، فلم يلق أحداً .

-غزوة سفوان (بدر الأولى):

وفي الشهر نفسه أغار كرز بن جابر الفهري على مراعي المدينة وساق بعض المواشي ، فخرج - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في طلبه إلى سفوان من ناحية بدر ، في سبعين رجلاً من المهاجرين ، ولكن كرزا أفلت ونجح في الفرار، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى .

-غزوة ذي العشيرة:

ثم خرج في جمادى الأولى أو الآخرة سنة 2هـ إلى ذي العشيرة في مائة وخمسين، أو في مائتين من المهاجرين، يعرض عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، ولكنها فاتته قبل أيام، وعقد ميثاق عدم العدوان مع بني مدلج .

ثم بعث في شهر رجب سنة 2هـ عبدالله بن جحش الأسدي إلى نخلة، بين مكة والطائف ، في اثني عشر رجلاً ، وأسروا اثنين، وساقوا العير، وغضب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على ذلك، ولم يرض به، فأطلق الأسيرين وأدى دية المقتول .

وكان الحادث في آخر يوم من رجب، فأثار المشركون ضجة بأن المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام. فأنزل الله :﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217].

تلك هي الغزوات والسرايا التي قام بها رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والمسلمون لحفظ أمن المدينة وأطرافها، ولإشعار قريش بسوء عاقبتها إن لم تكف عن شرها، ولكنها ازدادت في العلو والاستكبار ، فلاقت جزاء أمرها في بدر ، وكان عاقبة أمرها خسراً .

تحويل القبلة إلى مكة

وفي شعبان سنة 2هـ حول الله القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة ، وكان ذلك مما يحبه رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وينتظره ، وقد انكشف بذلك بعض المخادعين من المنافقين واليهود الذين دخلوا في الإسلام زوراً ، فارتدوا وتطهرت صفوف المسلمين منهم.

كان رسول الله– صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه فلما قدم المدينة وجَّه إلى بيت المقدس واستمر على ذلك بضعة عشر شهراً وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يتوجَّه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

خرج رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – زائراً أم بشر بن البراء في بني سلمة فصنعت له طعاماً وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله– صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الظهر بأصحابه في مسجدٍ هناك، فلما صلى ركعتين نزل جبريل فأشار أن صلِّ إلى البيت وصلى جبريل إلى البيت فاستدار رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى الكعبة واستقبل الميزاب فتحولت النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين.

خرج عبّاد بن بشر –رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ–وكان ممن صلى مع رسول الله– صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فمر على قوم من الأنصار ببني حارثة وهم راكعون في صلاة العصر فقال: أشهد بالله لقد صليتُ مع رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قِبَلَ البيت فاستداروا.

قال عبدالله بن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «وبينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد أنزل عليه قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة».

غزوة بدر الكبرى

وهي أول معركة فاصلة بين قريش والمسلمين، وسببها أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان بالمرصاد للعير التي فاتته إلى الشام حينما خرج إلى ذي العشيرة، وأرسل لها رجلين إلى الحوراء من أرض الشام ليأتيا بخبرها، فلما مرت بهما العير أسرعا إلى المدينة، فندب لها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المسلمين ، ولم يعزم عليها الخروج، فانتدب 313 رجلاً – وقيل 317 رجلاً – بضع وثمانون من المهاجرين، و61من الأوس، و170 من الخزرج، ولم يتخذ هؤلاء أهبتم الكاملة، فلم يكن معهم إلا فرسان وسبعون بعيراً فقط .

وعقد رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لواء أبيض دفعه لمصعب بن عمير، وكان للمهاجرين علم يحمله علي بن أبي طالب، وللأنصار علم يحمله سعد بن معاذ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أرسل مكانه من الروحاء أبا لبابة بن عبد المنذر .

وخرج رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من المدينة يريد بدراً وهو موضع على بعد 155 كيلومتراً جنوب غربي المدينة تحيط به جبال شواهق من كل جانب، وليس فيه إلا ثلاثة منافذ، منفذ في الجنوب، وهو العدوة القصوى، ومنفذ في الشمال وهو العدوة الدنيا، ومنفذ في الشرق قريباً من منفذ الشمال يدخل منه أهل المدينة، وكان فيه المساكن والآبار والنخيل فكانت تنزل القوافل، وتقيم فيه ساعات وأياماً، فكان من السهل جداً أن يسد المسلمون هذه المنافذ بعد ما تنزل العير في هذا المحيط، فتضطر إلى الاستسلام، ولكن من لوازم هذا التدبير أن لا يشعر أهل العير بخروج المسلمين إطلاقاً، حتى ينزلوا ببدر على غرة، ولذلك سلك رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أول ما سلك طريقاً آخر غير طريق بدر ثم تأنى في التقدم إلى جهة بدر .

أما العير فكان قوامها ألف بعير، موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار، وكان رئيسها أبا سفيان، ومعه نحو أربعين رجلاً فقط، وكان أبو سفيان في غاية التيقظ والحذر، يسأل كان غاد ورائح عن تحركات المسلمين، حتى علم بخروج المسلمين من المدينة، وهو على بعد غير قليل من بدر، فحول اتجاه العير إلى الغرب ليسلك طريق الساحل، ويترك طريق بدر إطلاقاً، واستأجر رجلاً يخبر أهل مكة بخروج المسلمين بأسرع ما يمكن ، فلما بلغهم النذير استعدوا سراعاً وأوعبوا في الخروج، فلم يتخلف من كبرائهم إلا أبو لهب، وحشدوا من حولهم من القبائل ولم يتخلف من بطون قريش إلا بنو عدي.

ولما وصل هذا الجيش إلى الجحفة بلغتهم رسالة أبي سفيان يخبرهم بنجاته ويطلب منهم العودة إلى مكة، وهم الناس بالرجوع ولكن أبى ذلك أبو جهل استكباراً ونخوة، فلم يرجع إلا بنو زهرة، أشار عليهم بذلك حليفهم ورئيسهم الأخنس بن شريق الثقفي، وكانوا ثلاثمائة، أما البقية، وهم ألف، فواصلوا سيرهم حتى نزلوا قريباً من العدوة القصوى، خارج بدر، في ميدان فسيح، وراء الجبال المحيطة ببدر .

أما رسول الله – صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – فقد علم بخروج أهل مكة، وهو في الطريق، فاستشار المسلمين، فقام أبو بكر فتكلم وأحسن، ثم قام عمر فتكلم وأحسن، ثم قام المقداد فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: 24].ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فأشرق وجه رسول الله – صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – وسر بذلك .

ثم قال: أشيروا عليَّ أيها المسلمون، فقام سعد بن معاذ رئيس الأنصار وقال: كأنك تعرض بنا يا رسول الله فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، وقال فيما قال: والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لا تبعناك. فسر رسول الله – صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – ثم

قال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم .

ثم تقدم إلى بدر فوصلها في نفس الليلة التي وصل فيها المشركون فنزل في داخل ميدان بدر قريباً من العدوة الدنيا، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن يتقدم فينزل على أقرب ماء من العدو حتى يصنع المسلمون حياضاً يجمعون فيها الماء لأنفسهم، ويغورون الآبار فيبقى العدو ولا ماء له، ففعل .

وبنى المسلمون عريشاً يكون مقر قيادته- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعينوا له حراساً من شباب الأنصار تحت قيادة سعد بن معاذ .

ثم عبأ رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الجيش وتجول في ميدان القتال وهو يشير بيده ويقول: «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، وغداً إن شاء الله »، ثم بات يصلي إلى جذع شجرة، وبات المسلمون مستريحين تغمرهم الثقة ، وكان الله قد أنزل المطر كما قال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11].

وفي الصباح – وهو صباح يوم الجمعة 17 من شهر رمضان سنة 2هـ ، تراآى الجمعان ، فدعا رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني » ، ثم عدل الصفوف، وأمرهم أن لا يبدؤوا بالقتال حتى يأتيهم أمره، وقال: إذا اكثبوكم – أي اقتربوا منكم – فارموهم، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم. ثم رجع إلى العريش، ومعه أبو بكر -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- فابتهل إلى الله – سبحانه تعالى – ودعاه، وناشده حتى قال: « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد أبداً ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً ». وبالغ في التضرع والابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك .

المبارزة والقتال :

تقدم ثلاثة من خيرة فرسان المشركين: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وبارزوا المسلمين، فخرج ثلاثة من شباب الأنصار، فقال المشركون: نريد بني عمنا، فخرج عبيدة بن الحارث، وحمزة، وعلي، فقتل حمزة شيبة وقتل علي الوليد واختلفت ضربتان بين عبيدة وعتبة وأثخن كل واحد منهما الآخر، ثم كر علي وحمزة على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله، فمات بعد أربعة أو خمسة أيام بالصفراء راجعاً إلى المدينة .

وأغفى رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - إغفاءة ، ثم رفع رأسه وقال: أبشر أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع – أي على أطرافه الغبار – وكان الله قد أمد المسلمين يومئذ بألف من الملائكة مردفين .

ثم تقدم رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - يثب في الدروع ويتلو قوله تعالى﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ القمر: 45]. وأخذ حفنة من الحصباء، ورمى بها وجوه المشركين، وهو يقول : شاهت الوجوه. فما من مشرك إلا وأصاب عينية ومنخريه من تلك الحفنة، وعن ذلك يقول الله تعالى ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17].

ثم أمر رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - المسلمين بالهجوم على المشركين، وقال : «شدوا»، وحرضهم على القتال. فشد المسلمون وهم على نشاطهم، وقد زادهم تحمساً وجود رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - فيما بين أظهرهم يقاتل قدامهم، فأخذوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق. ونصرهم الملائكة فكانوا يضربون فوق أعناق المشركين، ويضربون منهم كل بنان. فكان يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدرى من قطعها، حتى نزلت الهزيمة بالمشركين فلاذوا بالفرار، وأخذ المسلمون يطاردونهم فيقتلون فريقاً ويأسرون فريقاً .

وكان إبليس قد حضر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم تأييداً للمشركين، وتحريضاً لهم على قتال المسلمين، فلما رأى الملائكة وما يفعلون نكص على عقبيه وفر إلى البحر الأحمر وألقى نفسه فيه.

مقتل أبي جهل :

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الرحمن بن عوف قال: بينا أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار، حديثة أسنانهما، تمنيت أن أكون بين أَضْلَعَ منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عم، هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبرتُ أنه يسب رسول الله – – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – –، والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني، فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله – – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – – فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» قال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: «كلاكما قتله، سلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح» وكانا معاذ بن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح.

وبعد انتهاء المعركة قال رسول الله من ينظر ما صنع أبو جهل ، فانطلق عبدالله بن مسعود فوجده وبه رمق، فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته ليحتز رأسه وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال أبوجهل : وبماذا أخزاني ؟ هل فوق رجل قتلتموه ؟ ثم قال أيضا : أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال بن مسعود لله ولرسوله ، فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم ! فقطع عبدالله بن مسعود رأسه ثم جاء به إلى رسول الله

– صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فقال – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : الله أكبر ، والحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، وقال : هذا فرعون هذه الأمة .

يوم الفرقان :

كانت هذه المعركة معركة بين الكفر والإيمان، قاتل فيها الرجل عمه وأباه، وابنه وأخاه، وخاله وأدناه، قتل فيها عمر بن الخطاب –رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ– خاله العاص بن هشام، وواجه فيها أبو

بكر ابنه عبد الرحمن، وأسر فيها المسلمون العباس، وهو عم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهكذا انقطعت فيها صلة القرابة، وأعلى الله فيها كلمة الإيمان على كلمة الكفر، وفرق بين الحق والباطل، فسمي ذلك اليوم بيوم الفرقان، وهو يوم بدر، اليوم السابع عشر من شهر رمضان .

قتلى الفريقين :

قتل في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً من المسلمين ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار ، ودفنوا في ساحة بدر ومقابرهم لا تزال معروفة .

أما المشركون فقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، ومعظمهم كانوا من الصناديد ، وقد سحبت أربع وعشرين من صناديدهم وقذفت في قليب – بئر – خبيث في بدر .

وأقام رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في بدر ثلاثة أيام ، فلما استعد للرجوع جاء القليب وقام على شفته ، وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ! ويا فلان بن فلان ! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون .

وصول الأخبار إلى مكة والمدينة :

وصل نبأ الهزيمة إلى مكة بفلول المشركين، فكبتهم الله وأخزاهم، حتى نهوا عن النياحة على القتلى، كيلا يشمت بهم المسلمون.

أما أهل المدينة فقد أرسل أليهم رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بشيرين: عبدالله بن رواحة إلى العالية، وزيد بن حارثة إلى السافلة. وكان اليهود قد أرجفوا في المدينة بدعيات كاذبة، فلما وصل نبأ الفتح عمت الفرحة والسرور، واهتزت المدينة تهليلاً وتكبيراً، وتقدم رؤوس المسلمين إلى طريق بدر يهنئون رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

مقدم الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى المدينة :

وتقدم الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى المدينة متوجاً بنصر الله، ومعه الغنائم والأسرى ، فلما وصل قريباً من الصفراء نزل حكم الغنيمة، فأخذ منها الخمس، وقسمها سوياً بين الغزاة. فلما حل بالصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث ، فضرب عنقه علي بن أبي طالب، ولما حل بعرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط، فقتله عاصم بن ثابت الأنصاري، وقيل : علي بن أبي طالب .

أما رؤوس المسلمين الذين خرجوا لتهنئيه فلقوه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالروحاء ثم رافقوه يشيعونه إلى المدينة، فدخل فيها مظفراً منصوراً قد خافه كل عدو. وأسلم بشر كثير وتظاهر رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه بالإسلام.

قضية الأسارى

ولما استقر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - استشار في الأسارى، فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم ، وأشار عمر بقتلهم ، فقرر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أخذ الفدية، وكانت من أربعة آلاف إلى ثلاث آلاف درهم ، ومن كان منهم يقرأ ويكتب فجعل فديته أن يعلم عشرة غلمان من المسلمين، وأحسن إلى بعض الأسارى فأطلقهم بغير فدية ، فأنزل الله : « ماكانلنبئ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض »سورة الأنفال،

وفاة ابنته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رقية وزواج ابنته أم كلثوم بعثمان:

وكانت رقية بنت النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مريضة حين خرج لغزوة بدر، وكانت تحت عثمان بن عفان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فأمره أن يتخلف عليها ليمرضها، وله أجر من حضر بدراً ونصيبه، وخلف عليها أيضاً أسامة بن زيد، فتوفيت قبل رجوعه- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قال أسامة: أتانا الخبر – أي بشارة الفتح – حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

ولما استقر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالمدينة واطمأن بها، زوج عثمان بن عفان- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-ابنته الأخرى: أم كلثوم. فلذلك سمي عثمان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بذي النورين، وقد بقيت معه حتى توفيت في شعبان سنة تسع من الهجرة، ودفنت بالبقيع .

ساء المشركين ومن معهم ما أكرم الله به المسلمين من النصر والفتح، فأخذوا يدبرون مكائد يضرون بها المسلمين، وينتقمون منهم، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم وأيد المؤمنين بفضله .

-غزوة بني سُليم

لما قدم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المدينة من بدر لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سُليم وذلك في شوال من العام الثاني من الهجرة فبلغ ماء من مياههم يقال له: الكدر فأقام عليه ثلاث ليالي ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً وكان سبب خروجه ما بلغه أن بهذا الموضع جمعاً من سُليم وغطفان يخططون لحرب المسلمين.

-غزوة بني قينقاع :

ثم كاشف يهود بني قينقاع بالشر والعداوة، فنصحهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقالوا : يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس. وصبر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على هذا الجواب، فازدادت جرأتهم، حتى أثاروا في سوقهم فتنة قتل فيها رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فحاصرهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوم السبت للنصف من شوال سنة 2هـ .وقذف في قلوبهم الرعب، واستسلموا بعد خمسة عشر يوماً لهلال ذي القعدة ، بعدأن توسط لهم حليفهم رأس المنافقين عبدالله بن أبي سلول على أن يخرجوا من المدينة فوهبهم رسول الله له، فأجلاهم إلى أذرعات الشام، حيث مات أكثرهم ، وتولى جمع الغنائم منهم محمد بن مسلمة.

-غزوة السويق :

نذر أبو سفيان بعد غزوة بدر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فخرج في مائتي راكب ، وأغار بالعريض في ناحية المدينة، فقطعوا أسواراً من النخيل، وأحرقوها، وقتلوا رجلين وفروا .

وأتى الخبر رسول الله- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فطاردهم، ولكنهم أفلتوا ، وطرحوا أثناء فرارهم كثيراً من السويق والأزواد ليتخففوا، وبلغ المسلمون في مطاردتهم إلى قرقرة الكدر، ولكنهم فاتوا، وحمل المسلمون السويق، فسميت بغزوة السويق وبغزوة قرقرة الكدر .

ثانياً- الغزوات التي وقعت في السنة الثالثة من الهجرة النبوية

-غزوة ذي أمر:

بلغ النبي- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن غطفان تجمعت في ذي أمر من نجد فسار إليهم وعندما علموا بذلك فروا وكان عدد المسلمين أربعمائة وخمسون رجلاً وكان ذلك في الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الثالثة من الهجرة.

وذكر الواقدي وابن سعد وقوع قصة دعثُور المحاربي في هذه الغزوة وهي: أن في طريق العودة من ذي أمر قد أصيبوا بالمطر فابتل ثوب النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثم نزع ثيابه فنشرها على شجرة لتجف ثم اضطجع تحت الشجرة والأعداء ينظرون فأغروا سيدهم دعثُور لقتل رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعندما وقف عند رأس رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والسيف بيده قال: من يمنعك مني اليوم؟ فقال رسول الله- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «**الله**» ودفعه جبريل -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى وقع السيف منه فأخذه رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال: **من يمنعك مني اليوم؟** فقال: لا أحد. فأسلم وعاد وحكى لقومه وأخبرهم بما حدث وأخذ يدعوهم للإسلام.

-غزوة بُحران:

خرج النبي- صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - في ثلاثمائة من الصحابة يريد قريشاً وبني سُليم ووصل إلى بُحران من ناحية الفرع على الطريق التجاري بين مكة والشام ولم ينشب قتال بين الطرفين وكان ذلك في شهر جمادي الأولى من السنة الثالثة من الهجرة.

-سرية القردة :

في جمادى الآخرة سنة 3هـ أرسلت قريش عيراً لهم إلى الشام عن طريق العراق، لتخترق نجداً إلى الشام ، ولا تمر بقرب المدينة، وكان يقودها صفوان بن أمية، وعلم بذلك رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - أرسل زيد بن حارثة في مائة راكب، فدهمها زيد وهي تنزل على ماء في نجد يسمى بقردة، فاستولى على العير بكل ما فيها، وفر رجال العير بأجمعهم، وأسر الدليل فرات بن حيان فأسلم، وقدرت الغنيمة بمائة ألف، وكانت أوجع ضربة تلقتها قريش بعد غزوة بدر.

غزوة أحد

بينما كانت قريش تستعد للانتقام من المسلمين بما أصيبت به في غزوة بدر إذا بهم يتلقون ضربة أخرى في القردة، فازدادوا بها غضباً على غضب، فأسرعوا في الاستعداد وفتحوا باب التطوع، وحشدوا الأحابيش وخصصوا الشعراء للإغراء والتحريض، حتى تجهز جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، في ثلاثة آلاف بعير ومائتي فرس، وسبعمائة درع، ومعه عدد من النسوة للتحريض وبث روح البسالة والحماس، وكان قائده العام أبا سفيان، وحامل لوائه أبطال بني عبد الدار .

تحرك هذا الجيش في غيظه وغضبه حتى بلغ إلى ضواحي المدينة، وألقى رحله في ميدان فسيح على شفير وادي قناة قريباً من جبل عينين وأحد، وذلك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة 3هـ

ونقل الخبر إلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قبل نزول الجيش بنحو أسبوع، فشكل سرايا استطلاعية تحسباً للطوارئ، وحفظاً للمدينة، فلما وصل الجيش استشار المسلمين حول خطة الدفاع. وكان رأيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يتحصن المسلمون بالمدينة، فيقاتل الرجال على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، ووافقه رأس المنافقين عبدالله بن أبي (وقد فضحه الله وكشف نفاقه في سورة التوبة بعد غزوة تبوك) ، وكأنه قصد الجلوس في البيت دون أن يتهم بالتخلف، فألحّ الصحابة على المجالدة بالسيوف في مكان مكشوف، فقبل رأيهم، وقسم الجيش إلى ثلاث كتائب: كتيبة للمهاجرين وحمل لواءها مصعب بن عمير، وأخرى للأوس وحمل لواءها أسيد بن حضير، وثالثة للخزرج وحمل لواءها الحباب بن المنذر .

واتجه بعد صلاة العصر إلى جبل أحد فلما بلغ موضع الشيخين استعرض الجيش، فردّ الصغار، وأجاز رافع بن خديج على صغره، لأنه كان ماهراً في رمي السهام. فقال سمرة بن جندب أنا أقوى منه، أنا أصرعه، فأمرهما بالمصارعة، فصرع سمرة رافعاً فأجازه أيضاً .

وفي موضع الشيخين صلى المغرب والعشاء، ثم بات هناك، وعين خمسين رجلاً لحراسة المعسكر، فلما كان آخر الليل ارتحل قبل الفجر فصلاها بالشوط، وهناك تمرد المنافق عبدالله بن أبي فرجع مع ثلاثمائة من أصحابة، وسرى لأجل ذلك الضعف والاضطراب في بني سلمة وبني حارثة، وكادتا ترجعان، ولكن ثبتهما الله. وكان أولاً مجموع عدد المسلمين ألفاً فبقي سبعمائة .

وتقدم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نحو جبل أحد من طريق قصير يترك العدو في جانب الغرب، حتى نزل بالشعب عند منفذ الوادي، جاعلاً ظهره إلى هضاب أحد، وبذلك صار العدو حائلاً بين المسلمين وبين المدينة . وهناك عبأ الجيش، وعين خمسين رجلاً من الرماة على جبل عينين – وهو الذي يعرف بجبل الرماة – بقيادة عبدالله بن جبير الأنصاري، وأمرهم أن يدفعوا الخيل، ويحموا ظهور المسلمين. وأكد لهم أن لا يتركوا مكانهم حتى يأتي أمره ، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا .

وعبأ المشركون جيشهم، وتقدموا إلى ساحة القتال، تحرضهم نسوتهم، وهن يتجولون في الصفوف، ويضربن بالدفوف ويثرن الأبطال، وينشدن الأبيات:

إنْ تَقْبَلُوا نُعَانِقْ   وَنَفْرُشُ النَمَارِقْ
أَوْ تَدْبِروا نُفَارِقْ   فِرَاقَ غَير وَامِقْ

المبارزة والقتال :

وتقارب الجيشان فطلع طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء المشركين وأشجع فرسان قريش، ودعا إلى المبارزة وهو على بعير، فتقدم إليه الزبير بن العوام -رضي الله عنه- ووثب وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم أخذه واقتحم به الأرض، وذبحه بسيفه، فكبر النبي -صلى الله عليه وسلم- وكبر المسلمون .

ثم انفجر القتال في كل نقطة وحاول خالد بن الوليد – وهو على فرسان المشركين –ثلاث مرات ليبلغ إلى ظهور المسلمين، ولكن رشقه الرماة بسهامهم حتى ردوه .

وركز المسلمون هجومهم على حملة لواء المشركين حتى قتلوهم عن آخرهم وكانوا أحد عشر مقاتلاً، فبقى اللواء ساقطاً، وشدد المسلمون هجومهم على بقية النقاط حتى هدوا الصفوف هدا وحسوا المشركين حساً، وأبلى أبو دجانة وحمزة – -رضي الله عنهما- – في ذلك بلاءً حسناً.

وفي أثناء هذا التقدم والانتصار قتل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله -رضي الله عنه- قتله وحشي بن حرب، وكان عبداً حبشياً ماهراً في قذف الحربة، وقد وعده مولاه جبير بن مطعم بالعتق إذا قتل حمزة ؛ لأن حمزة هو الذي قتل عمه طعيمة بن عدي في بدر، فاختبأ وحشي وراء صخرة يرصد حمزة، وبينما حمزة يضرب رأس سباع بن عرفطة – رجل من المشركين – صوب وحشي إليه الحربة، وقذفها، وهو على غرة، فوقعت في أحشائه ، وخرجت من بين رجليه فسقط ولم يستطع النهوض حتى قضى نحبه-رضي الله عنه-.

ووقعت الهزيمة بالمشركين حتى لاذوا بالفرار، وفرت النسوة المحرضات، وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح، ويأخذون الغنائم، وحينئذ أخطأ الرماة، فنزل منهم أربعون رجلاً ليصيبوا من الغنيمة، على رغم ما كان لهم من الأمر المؤكد بالبقاء في أماكنهم. وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة، فانقض على العشرة الباقية بجبل الرماة حتى قتلهم، واستدار هذا الجبل حتى وصل إلى ظهور المسلمين وبدأ بتطويقهم، وصاح فرسانه صحية عرفها المشركون فانقلبوا، ورفعت لواءها إحدى نسائهم فالتفوا حوله وثبتوا، وبذلك وقع المسلمون بين شقي الرحى.

هجوم المشركين على رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - وإشاعة مقتله :

وكان رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – في مؤخرة المسلمين ، ومعه سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين، فلما رأى فرسان خالد تطلع من وراء الجبل نادى أصحابه بأعلى صوت: إليَّ عباد الله ! وسمع صوته المشركون – ولعلهم كانوا أقرب إليه من المسلمين

– فأسرعت مجموعة منهم نحو الصوت، وهاجمت رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – هجوماً شديداً ، وحاولت القضاء عليه قبل أن يصل إليه المسلمون، فقال – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو هو رفيقي في الجنة، فتقدم رجل من الأنصار فدفعهم، وقاتلهم حتى قتل، ثم رهقوه، فأعاد قوله، ، فتقدم رجل آخر فدفعهم وقاتلهم حتى قتل، ثم الثالث، ثم الرابع وهكذا حتى قتل السبعة .

ولما سقط السابع لم يبق حول رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – إلا القرشيان طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، فركز المشركون حملتهم على رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – حتى أصابته حجارة وقع لأجلها على شقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى وجرحت شفته السفلى وهشمت البيضة على رأسه، فشجت جبهته ورأسه، وضرب بالسيف على وجنته فدخلت فيها

حلقتان من حلق المغفر، وضرب أيضاً بالسيف على عاتقه ضربة عنيفة اشتكى لأجلها أكثر من شهر، وكان قد لبس درعين فلم يتهتكا .

وقع كل هذا على رغم دفاع القرشيين الدفاع المستميت، فقد رمى سعد بن أبي وقاص حتى نثل له رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - كنانته وقال: ارم فداك أبي وأمي، وقاتل طلحة بن عبيد الله وحده قتال مجموع من سبق، حتى أصابه خمسة وثلاثون أو تسعة وثلاثون جرحاً ، ووقى النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - فأصيبت أصابعه حتى شلت. ولما أصيب أصابعه قال : حس، فقال النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - لو قلت : بسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون .

وخلال هذه الساعة الحرجة نزل جبريل وميكائيل فقاتلا عنه أشد القتال، وجاء إليه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - عدد من المسلمين فدافعوا عنه أشد الدفاع، وكان أولهم أبا بكر الصديق، ومعه أبو عبيدة بن الجراح — -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا- — وتقدم أبو بكر لينزع حلقة المغفر عن وجه رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - فألح عليه أبو عبيدة حتى نزعها هو، فسقطت إحدى ثنيتيه، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت الثنية الأخرى، ثم أقبلا على طلحة بن عبيد الله فعالجاه وهو جريح

وأثناء ذلك وصل إلى رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - أبو دجانة ومصعب بن عمير وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهم، وتضاعف عدد المشركين أيضاً، واشتدت هجماتهم، وقام المسلمون ببطولات نادرة ، فمنهم من يرمي ، ومنهم من يدافع ، ومنهم من يقاتل ، ومنهم من يقي السهام على جسده .

وكان اللواء بيد مصعب بن عمير، فضربوا على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذه بيده اليسرى، فضربوا عليها حتى قطعت، فبرك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذي قتله هو عبدالله بن قمئة، فلما قتله ظن أنه قتل رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - ، لأن مصعباً كان يشبهه- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - فانصرف ابن قمئة وصاح: إن محمداً قد قتل، وشاع الخبر بسرعة، وبإشاعته تخفف هجوم المشركين، إذ ظنوا أنهم أصابوا الهدف ، وبلغوا ما أرادوا ، وأما عن جيش المسلمين فإنهم لما سمعوا خبر مقتل النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - طار صواب طائفة منهم،

وخارت عزائمهم، واستكانوا، حتى تركوا القتال، وتشجع آخرون وقالوا : موتوا على ما مات عليه رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وبينما هم كذلك إذ رأى كعب بن مالك رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو يشق الطريق إليهم، فعرفه بعينيه، إذ كان وجهه تحت حلق المغفر والبيضة، فنادى كعب بصوت عال: يا معشر المسلمين !! أبشروا ، هذا رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فبدأ المسلمون يرجعون إليه، حتى تجمع حوله ثلاثون رجلاً من أصحابه، فشق بهم الطريق بين قريش، ونجح في إنقاذ جيشه المطوق، وسحبه إلى شعب الجبل. وقد حاول المشركون عرقلة هذا الانسحاب، ولكنهم فشلوا تماماً ، وقتل منهم اثنان أثناء هذه المحاولة . وبهذه الخطة الحكيمة نجا المسلمون، ولكن بعد أن دفعوا الثمن غالياً لما ارتكبه الرماة من الخطأ ومخالفة أمر رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وجاء أبي بن خلف متغطرساً إلى الشعب يزعم أنه يقتل رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فطعنه رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بحربة في ترقوته، في فرجة بين الدرع والبيضة، فتدحرج عن فرسه مراراً، ورجع إلى قريش وهو يخور خوار الثور ، فلما بلغ سرف – قريباً من مكة – مات لأجله .

ثم جاء رجال من المشركين يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد، وعلوا في بعض جوانب الجبل، فقاتلهم عمر بن الخطاب ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل، وتفيد بعض الروايات أن سعد بن أبي وقاص -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- قتل ثلاثة منهم .

وبلغ عدد قتلى المشركين اثنين وعشرين وقيل: سبعة وثلاثين. أما المسلمون فقد قتل منهم سبعون: 41 من الخزرج، و24 من الأوس، و4 من المهاجرين، وقيل غير ذلك.

وبعد هذه المحاولات أخذ المشركون يستعدون للعودة إلى مكة .

أما رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فإنه لما تمكن من الشعب واطمأن فيه، جاءه علي - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- بماء من المهراس – وهو ماء بأحد – ليشرب منه النبي- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فوجد له

ريحاً فلم يشرب منه، بل غسل به الوجه، وصبه على الرأس، فأخذ الدم ينزف من الجرح، ولا ينقطع، فأحرقت فاطمة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-قطعة من حصير، وألصقته، فاستمسك الدم، وجاء محمد بن مسلمة بماء سائغ فشرب منه، ودعا له بخير، وصلى الظهر قاعداً، وصلى المسلمون معه قعوداً. وجاءت نسوة من المهاجرين والأنصار، فيهن عائشة ، وأم أيمن ، وأم سليم ، وأم سليط ، فكن يملأن القرب بالماء ، ويسقين الجرحى ، - رضي الله عنهن أجمعين -.

حوار أبو سفيان للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ورد الصحابة عليه:

ولما استعد المشركون للرجوع تماماً اشرف أبو سفيان على الجبل، ونادى : أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه ، وكان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هو الذي نهاهم عن الإجابة. فقال أبو سفيان : أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله ! إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله ما يسوءك ، فقال ؟أبو سفيان : قد كان فيكم مثلة، لم آمر بها ولم تسؤني ، ثم قال: اعل هبل ، فعلمهم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الجواب ، فأجابوه : الله أعلى وأجل .

ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم. فعلمهم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الجواب فأجابوه : الله مولانا ولا مولى لكم .

ثم قال أبو سفيان : أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال، فقال عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- : لا سواء . قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار .

قال أبو سفيان : إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا .

ثم دعاه أبو سفيان وقال : أنشدك الله يا عمر ! أقتلنا محمداً ؟ قال عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لا . وإنه ليستمع كلامك الآن .

قال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة ، وأبر .

ثم نادى أبو سفيان : إن موعدكم بدر العام القابل .

فأمر رسوا الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أحد أصحابه أن يقول : نعم هو بيننا وبينك موعد .

رجوع المشركين وقيام المسلمين بتفقد الجرحى ودفن الشهداء :

ثم رجع أبو سفيان إلى جيشه، وأخذ الجيش في الارتحال ، وقد ركب الإبل وجعل الخيل بالجنب ، وكان هذا دليل قصدهم لمكة، وكان من فضل الله على المسلمين، إذ لم يكن بين المشركين وبين المدينة من يمنعهم عن الدخول فيها ، ولكن صرفهم الله الذي يحول بين المرء وقلبه .

فنزل المسلمون إلى ساحة القتال يتفقدون الجرحى والقتلى، وقد نقل بعضهم بعض الشهداء إلى المدينة، فأمر رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بردهم إلى مضاجعهم ، ودفنهم في ثيابهم، بغير غسل ولا صلاة، وقد دفن الاثنين والثلاثة في قبر واحد، وربما جمع بين الرجلين في ثوب واحد، وجعل بينهما الإذخر، وقدم في اللحد من كان أكثر حفظاً للقرآن ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة .

ووجدوا نعش حنظلة بن أبي عامر في ناحية فوق الأرض، يقطر منه الماء، فقال النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إن الملائكة تغسله، وكان من قصته أنه كان حديث عهد بعرس، وكان معها إذ سمع المنادي ينادي للحرب، فتركها، وخرج إلى ساحة القتال، وقاتل حتى قتل، وهو جنب ، فغسلته الملائكة ، فسمى غسيل الملائكة .

وكفن حمزة في برد إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه ، فجعلوا على رجليه الإذخر ، وكذلك مصعب بن عمير .

رجوع المسلمين إلى المدينة :

ولما فرغ رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمسلمون من دفن الشهداء ، والدعاء لهم ، رجعوا إلى المدينة ، وقد خرجت نسوة قتل أقاربهن ، فلقين رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الطريق ، فعزاهن ودعا لهن ، وجاءت امرأة من بني دينار قتل زوجها وأخوها وأبوها ، فلما

نعوا لها سألت عن رسول الله - صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - فقالوا لها : إنه بحمد الله كما تحبين ، فقالت : أرونيه، فأشاروا لها ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل : أي صغيرة .

وبات المسلمون في حالة الطوارئ ، يحرسون المدينة ، ويحرسون رسول الله - صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، وهم منهكون من الجرح والتعب ، والحزن والألم ، ورأى رسول الله - صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - أنه لابد من متابعة حركات العدو حتى يناجزه في الميدان لو حاول العودة إلى المدينة .



غزوة حمراء الأسد

فلما أصبح نادى في المسلمين أن يخرجوا للقاء العدو، ولا يخرج إلا من شهد القتال بأحد، فقالوا : سمعاً وطاعة ، وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وعسكروا هناك .

أما المشركون فكانوا نازلين بالروحاء ، على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة ، يفكرون ويتشاورون في العودة إليها، ويأسفون على ما فاتهم من الفرصة الصالحة .

وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي من المناصحين لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فجاءه بحمراء الأسد، وعزاه على ما أصابه في أحد، فأمره رسول الله أن يلحق أبا سفيان ويخذله، فلحقهم بالروحاء، وقد أجمعوا ليعودوا إلى المدينة ، فخوفهم أشد التخويف ، قال : إن محمداً خرج في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ، ولا أرى أن ترتحلوا حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة .

فلما سمعوا هذا خارت عزائمهم، وانهارت معنوياتهم، واكتفى أبو سفيان بحرب دعائية ، إذ كلف من يقول للمسلمين ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران: 173].

حتى لا يطارده المسلمون، وعجل الارتحال إلى مكة .

أما المسلمون فلم يؤثر فيهم هذا الإنذار، بل :﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: 173]. وبقوا في حمراء الأسد إلى يوم الأربعاء، ثم رجعوا إلى المدينة ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: 174].

ثالثاً: الحوادث والغزوات في السنة الرابعة من الهجرة النبوية

كان لما أصاب المسلمين بأحد أثر سيء على سمعتهم، إذ تجرأ الأعداء، وكاشفوهم بالنزال، ووقعت عدة أحداث لم يكن بعضها في صالح المسلمين، ونكتفي هنا بذكر الأهم منها فقط .

-حادث الرجيع :

قدم رجال من عضل وقارة إلى رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - ، وذكروا له أن فيهم إسلاماً، وطلبوا منه يبعث إليهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث عشرة من أصحابه أمر عليهم عاصم بن ثابت، فلما كانوا بالرجيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم بني لحيان من هذيل، فلحقهم قريب من مائة رام، وأحاطوا بهم وهم في مكان مرتفع، فأعطوهم العهد إن نزلوا أن لا يقتلوهم، فأبى عاصم النزول، وقاتل مع أصحابه، فقتل منهم سبعة، وبقي ثلاثة ، فأعطاهم الكفار العهد مرة أخرى، فنزلوا، فغدروا بهم، وربطوهم. فقال أحد الثلاثة، هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم فقتلوه، وانطلقوا بالاثنين الآخرين إلى مكة، وهما خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، فباعوهما، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر بن نوفل يوم بدر، فاشترته بنته أو أخوه، وسجنوه فترة ثم خرجوا به إلى التنعيم ليقتلوه، فصلى ركعتين ، ثم دعا عليهم ، ثم قال فيما قال :

ولست أبالي حين أقتلُ مسلماً على أي جنبٍ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه، وإنك لفي أهلك ؟ فقال : والله ما يسرني أني في أهلي ، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكه تؤذيه ، ثم قتله عقبة بن الحارث بن عامر بأبيه .

وأما زيد بن الدثنة فكان قتل أمية بن محرث يوم بدر، فابتاعه ابنه صفوان بن أمية، وقتله بأبيه ، وقد نسب إليه ما تقدم من قول أبي سفيان ورد خبيب عليه .

وبعثت قريش ليؤتى بجزء من جسد عاصم، فبعث الله الزنابير فحمته منهم، وكان عاصم قد عهد الله أن لا يمسه مشرك، ولا يمس هو مشركاً في حياته، فحفظه الله بعد وفاته .

-مأساة بئر معونة

وفي نفس أيام حادثة الرجيع حدثت مأساة أخرى أشد منها، وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك، المدعو بملاعب الأسنة، قدم على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المدينة ، فدعاه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى الإسلام ، فلم يسلم، ولم يبعد ، ولكنه أبدى رجاءه أن أهل نجد يجيبونه إلى الإسلام إذا بعث إليهم الدعاة، وقال : أنا جار لهم ، فبعث إليهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سبعين داعياً من قراء الصحابة ، فنزلوا على بئر معونة، وذهب حرام بن ملحان بكتاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه من خلفه حتى أنفذ الرمح ، فقال حرام: الله أكبر ، فزت ورب الكعبة.

واستنفر عدو الله بني عامر فلم يجيبوه، لجوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته بطون منها: رعل وذكوان وعصية، فأحاطوا بالصحابة، وقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج إلا كعب بن زيد، وعمرو بن أمية الضمري، فأما كعب بن زيد فكان جريحاً، وظنوه قتيلاً، فارتث من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق، وأما عمرو بن أمية الضمري، فكان مع المنذر بن عقبة في المسرح، فلما رأيا الطير تحوم على الموقعة عرفا الحادث،

فنزل المنذر ، وقاتل حتى قتل، وأسر عمرو بن أمية، فأخبر عنه عامر بن الطفيل أنه من مضر، فجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه .

ورجع عمرو بن أمية إلى المدينة، فلما كان بالقرقرة من الطريق وجد رجلين من بني كلاب، ظنهما من العدو فقتلهما، وكان لهما عهد من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فلما قدم المدينة وأخبر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: قتلت قتيلين لأدينهما.

وقد حزن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حزناً شديداً على ما حدث بالرجيع وببئر معونة، وكان الحادثان في شهر واحد – شهر صفر سنة 4هـ - ويقال: إن خبر الحادثين وصل إليه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في ليلة واحدة، فدعا على هؤلاء القتلة ثلاثين صباحاً في صلاة الفجر، حتى أنزل الله عنهم: أبلغوا عنا قومنا: أنا لقينا ربنا، فرضي عنا، ورضينا عنه، فترك القنوت .

غزوة بني النضير

تآمر بنو النضير مؤامرة أخبث من عضل وقارة، ومن الغادرين بأصحاب بئر معونة. فقد طلبوا من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يجتمع بهم في موضع يسمعون منه القرآن والإسلام، ويناقشونه، ويؤمنون به إن اقتنعوا، فتم الاتفاق على ذلك، وقرر هؤلاء الأشرار فيما بينهم أن يأتي كل رجل منهم بخنجر تحت ثيابه، فيغتالون النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بغتة وعلى غرة، فوصل الخبر إلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقرر إجلاءهم .

وقيل: لما رجع عمرو بن أمية الضمري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ، وأخبر بقتل رجلين من بني كلاب، ذهب النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى بني النضير في نفر من الصحابة، ليعينوه في ديتها حسب الميثاق، فقالوا نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا، حتى نقضي حاجتك، فجلس على جنب جدار ينتظر، وخلا بعضهم ببعض، وركبهم الشيطان، فقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى ويصعد فيلقها على رأسه ؟ فانبعث أشقاهم عمرو بن جحاش، ونزل جبريل يخبر النبي -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بما أرادوا ، فقام مسرعاً وتوجه إلى المدينة، ثم لحقه أصحابه، فأخبرهم بالمؤامرة وقرر إجلاءهم .

ثم بعث إليهم محمد بن مسلمة يقول لهم: اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجد بعده يضرب عنقه، فتجهزوا أياماً للرحيل، ثم أرسل رئيس المنافقين عبدالله بن أبي: أن اثبتوا ولا تخرجوا، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصونكم، ويموتون دونكم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر:11]. وينصركم قريظة وغطفان، فشعروا بالقوة وامتنعوا، وقالوا لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إنا لا نخرج ، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكبر أصحابه ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى اللواء عليا ، وسار إليهم ، حتى فرض عليهم الحصار ، فالتجأوا إلى حصونهم ، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبل والحجارة ، وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم ، فأمر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقطعها وتحريقها، فانهارت عزائمهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم، فاستسلموا بعد ست ليال، وقيل : بعد خمس عشرة ليلة ، على أنهم يخرجون من المدينة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم رأس المنافقين وحلفاؤهم : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: 16].

وسمح لهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بأن يحملوا معهم ما يشاؤون من الأمتعة والأموال إلا السلاح، فحملوا ما استطاعوا، حتى قلعوا من بيوتهم الأبواب والشبابيك، والأوتاد وجذوع السقف، وحملوها فيما حملوا، وهذا الذي قال الله عنه: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2].

ونزل أكثرهم وأكابرهم بخيبر، ونزلت طائفة منهم بالشام.

وقسم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أرضهم وديارهم بين المهاجرين الأولين خاصة، وأعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف من الأنصار لفقرهما، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة،

ويجعل ما بقي في السلاح والخيول عدة في سبيل الله، وقد وجد عندهم من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً .

غزوة بدر الموعد

ذكرنا أن أبا سفيان كان قد تواعد في أحد على حرب في العام القادم، فلما دخل شهر شعبان سنة 4هـ ، خرج رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى بدر حسب الموعد، وأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان ، وكان معه ألف وخمسمائة مقاتل، وعشرة أفراس، وأعطى اللواء علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبدالله بن رواحة .

أما أبا سفيان فإنه خرج في ألفي مقاتل، وخمسين فرساً، حتى انتهى إلى مر الظهران، ونزل على مجنة – ماء مشهور في تلك الناحية – وكان قد أخذه الرعب منذ خروجه، فقال لأصحابه: لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وهذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا، فرجعوا ولم يبدوا أي معارضة .

وأما المسلمون فقد رجعوا إلى المدينة وقد هابهم كل عدو، وساد الأمن في كل جانب، حتى مضى أكثر من سنة ولم يجترئ الأعداء على أن يحركوا ساكناً، واستطاع رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بفضل هذا الأمن أن يتفرغ لتأمين أقصى الحدود، حتى خرج لتأديب قطاع الطرق إلى دومة الجندل في ربيع الأول سنة 5هـ فبسط الأمن والسلام في كل جانب .

رابعاً : الغزوات في السنة الخامسة للهجرة

-غزوة دومة الجندل:

بلغ رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن قبائل حول دومة الجندل تقطع الطريق وتنهب الناس وتريد مهاجمة المدينة فبادرهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وخرج إليهم في ألف من المسلمين وكان الجيش يسير ليلاً ويستريح في النهار اتقاء حرارة الشمس حتى وصل رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأصحابه إلى دومة الجندل وأخبره الدليل بوجود قطعان من الماشية والإبل واستولى عليها المسلمون ونزل عند منازلهم ولم يجدوا أحداً حيث إن أهالي دومة الجندل هربوا خوفاً من مواجهة الجيش الإسلامي وبقوا فيها وبعث رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - السرايا ثم بعد مكثهم أياماً رجعوا إلى المدينة في العشرين من شهر ربيع الآخر من السنة الخامسة.

-غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع:

بنو المصطلق فرع من قبيلة خزاعة، وكانت عامة بطون خزاعة ممالئين لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ناصحين له ، ولكن كان هذا الفرع منها ممالئاً لقريش ، وقد نقل إلى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنهم يستعدون لقتاله ، فبعث بريدة بن الحصيب لتحقيق هذا الخبر ، فتأكد لديه صحته ، فاستعمل على المدينة زيد بن حارثة - وقيل: غيره - وأسرع في الخروج إليهم ، ليباغتهم بالهجوم ، ومعه سبعمائة من الصحابة ، وكان بنو المصطلق نازلين على ماء يسمى بالمريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فأغار عليهم وهم غارون ، فقتل بعضهم ، وسبى ذراريهم ، وأخذ أموالهم، وذلك لليلتين من شعبان سنة 6هـ - وقيل : 5هـ - وكان في السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق ، فلما قدم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المدينة أعتقها وتزوجها بعد أن أسلمت ، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من

بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله - صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - فكانت أعظم النساء بركة على قومها .

تلك هي غزوة بني المصطلق بإيجاز، ليس فيها ما يستغرب، لكن وقعت خلالها حادثتان مؤلمتان استغلهما المنافقون لإثارة الفتن والاضطراب في المجتمع الإسلامي ، وحتى في البيت النبوي:

الحادثة الأولى:

قول رأس المنافقين: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل:

وسبب ذلك أن رجلاً من خلفاء المهاجرين وآخر من خلفاء الأنصار ازدحما على ماء المريسيع، فضرب المهاجري الأنصاري، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري : يا للمهاجرين، واجتمع ناس من الطرفين، فبادرهم رسول الله - صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - وقال : «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فإنها منتنة** » فعاد الناس إلى رشدهم ورجعوا .

وكانت جماعة من المنافقين قد خرجت في هذه الغزوة ، ولم تخرج من قبل ، ومعهم رئيسهم عبدالله بن أبي ، فلما بلغه الخبر استشاط غضباً ، وقال: أو قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، أراد بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله - صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - العياذ بالله — وأخذ يدبر لذلك الفتن، حتى قال لرفقائه: هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم لتحولوا إلى غير داركم .

وكان معهم حينما قال ما قال شاب مؤمن قوي الإيمان: زيد بن أرقم لم يصبر على هذا الهراء حتى أبلغ الخبر رسول الله - صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - ، فدعا - صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - ابن أبي، وسأله عن ذلك، فحلف أنه لم يقل شيئاً مما بلغه ، فأنزل الله سورة المنافقين ، وفضحه إلى يوم الدين .

وكان ابن هذا المنافق — واسمه أيضاً عبدالله — مؤمناً خالصاً، فوقف على نقب المدينة مستلاً سيفه، وقال لأبيه رأس المنافقين: والله لا يجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله -

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فإنه العزيز وأنت الذليل ، وبلغ ذلك رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأرسل إليه أن يأذن له ، فخلى سبيله وبهذه الحكمة انتهت هذه الفتنة .

-الحادثة الثانية :

حادثة الإفك :

وحديث ذلك أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نزل في عودته من تلك الغزوة منزلاً حين دنا من المدينة، ثم آذن بالرحيل ليلاً ، وكانت معه عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-، فخرجت لحاجتها، فلما رجعت التمست صدرها فرأت أنها فقدت عقدها، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه حتى وجدته، وارتحل الجيش، وحملوا هودجها على بعيرها ظناً منهم أنها فيه ، ولم ينكروا خفة الهودج لكونهم جماعة، ولكونها خفيفة، ورجعت عائشة إلى منازلهم فلم تجد أحداً، فقعدت هناك على أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها إلى هذا المكان ، فغلب عيناها النوم -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- حتى نامت .

وكان أحد الصحابة – وهو صفوان بن المعطل السلمي -- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قد بات من وراء الجيش، وكان كثير النوم فلم يستيقظ إلا مؤخراً، فسلك سبيل الجيش، فلما رأى سواد إنسان نائم ، فلما قرب منه عرف أنها عائشة ، لأنه كان رآها قبل الحجاب، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟ لم يقل كلمة غير ذلك ، واستيقظت عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-بسماع صوته، فخمرت وجهها بجلبابها، وقرب صفوان راحلته ، وأناخها فركبت ، وأمسك هو زمام الناقة يمشي أمامها ، حتى وصل إلى الجيش ، وهم نازلون في نحر الظهيرة.

ولما رأى ذلك عدو الله ابن أبي المنافق وجد متنفساً من كرب النفاق والحقد، فاتهمها بالفجور إفكاً وزوراً، وأخذ يستحكي ذلك، ويستوشيه، ويجمعه ويفرقه، ويشيعه ويذيعه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاضوا فيه، حتى مال إلى كلامه عدد من المؤمنين .

ومرضت عائشة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا-حين قدمت المدينة، وطال مرضها نحو شهر ، فكانت المدينة تموج بقول أهل الإفك ، وهي لا تعلم شيئاً ، وإنما كان يريبها أنها لم تكن ترى اللطف الذي كانت تراه من رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - حين تشتكي، فكان- صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - يدخل عليها فيسلم ويقول : كيف تيكم ؟ ثم يرجع ولا يجلس عندها .

وكان - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - طوال هذه الفترة ساكتاً لا يتكلم، فلما استلبث الوحي طويلاً استشار أصحابه ، فأشار علي بن أبي طالب بفراقها تلويحاً ، وأشار أسامة وغيره بإمساكها ، وأنها كالتبر الخالص، فقام - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - على المنبر واستعذر من رجل بلغ أذاه في أهله – وكانت الإشارة إلى عبدالله ابن أبي – فأظهر سيد الأوس رغبته في قتله، فأخذت الحمية سيد الخزرج، لأن ابن أبي كان منهم، فتثاور الحيان حتى خفضهم رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- .

وخرجت عائشة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا-ذلك اليوم لحاجتها ليلاً ، وقد نقهت من المرض ، ومعها أم مسطح ، فعثرت في مرطها ، فدعت على ابنها مسطح، فاستنكرت ذلك عائشة، فأخبرتها الخبر، وأن ابنها ممن يقول بقولهم ، فرجعت عائشة فاستأذنت رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - وأتت أبويها ، فلما تأكد لديها الخبر جعلت تبكي وتبكي حتى بكت ليلتين ويوماً، لم تكتحل أثناءها بنوم، ولم يرقأ لها دمع، حتى ظنت وظن أبواها أن البكاء فالق كبدها .

وجاءها رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - صباح الليلة الثانية فجلس وتشهد وقال: «**أما بعد يا عائشة ! فإنه بلغني عنك كذا كذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**» .

وحينئذ قلص دمعها، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان، فقالت: والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم أني بريئة – والله يعلم أني بريئة – لا تصدقونني ، ولئن اعترفت لكم بأمر – والله يعلم أني

منه بريئة – لتصدقوني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يوسف: 18].

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي ساعته، فسرى عن رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: « يا عائشة ! أما الله فقد برأك »، فقالت لها أمها: قومي إليه، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله

وأنزل الله – تعالى – في براءتها عشر آيات في سورة النور بداية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 11].إلى آخر الآية العشرين .

❁❁❁❁❁❁

غزوة الأحزاب

كاد رسول الله – صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – والمسلمون يتفرغون لنشر دينهم، وإصلاح أحوالهم، بعد أن ساد الهدوء بفضل ما اتخذه رسول الله – صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – من الخطط الحكيمة، فلم يحصل بعد غزوة بني النضير أي مواجهة تذكر، لفترة تجاوز سنة ونصف سنة، ولكن هكذا هم اليهود لم يرقهم أن يستريح المسلمون، فهم بعد ما استقروا بخيبر واطمأنوا بها، أخذوا يدبرون المؤامرات، ويتحركون وراء الستار ، حتى نجحوا في جلب جيش عرمرم من قبائل العرب ضد أهل المدينة .

يقول أهل السير: إن عشرين رجلاً من سادتهم وزعمائهم خرجوا إلى قريش، يحرضونهم على غزو المدينة ، ووعدوهم بالنصر، فأجابت لهم قريش، ثم ذهبوا إلى غطفان، فأجابوا، ثم طافوا في القبائل فأجاب عدد منها، ثم حركوا هؤلاء القوم جميعاً تحت خطة منسقة حتى يصل الجميع إلى أطراف المدينة في زمن واحد.

-الشورى وحفر الخندق :

وبلغ خبر تجمعهم وتحركهم إلى المدينة، فاستشار رسول الله – صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – أصحابه، فأشار سلمان الفارسي –رَضِيَاللَّهُعَنۡهُ– بحفر الخندق، فاستحسنوه واتفقوا عليه .

وقد وكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا أربعين ذراعاً، واشترك معهم رسول الله– صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – في حفر الخندق ونقل التراب، وكانوا يرتجزون فيجيب، ويرتجز فيجيبون، وقد كابدوا في أثناء حفره أنواعاً من المشقة، ولا سيما شدة البرد، وشدة الجوع، وكان يؤتي لهم بملء كف من الشعير، فيصنع بدسم يفوح منها الريح، فيأكلونه، وهو يصعب مروره على الحلق، وشكوا إلى رسول الله – صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – الجوع، وأروه على بطونهم حجراً حجراً كانوا قد ربطوه، فأراهم على بطنه حجرين.

وقد وقعت في أثناء الحفر بعض الآيات، رأى جابر شدة الجوع في رسول الله – صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – فلم يصبر، فذبح بهيمة له، وطحنت امرأته صاعاً من شعير، ثم دعا رسول

الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سراً ، في نفر من أصحابه ، فقام رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بجميع أهل الخندق، وهم ألف، فأكلوا وشبعوا وما زالت البرمة تغط ، والعجين يخبز ، وذهبت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر لأبية وخاله فبدده رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فوق ثوب، ودعا أهل الخندق ، فأكلوا ورجعوا ، والتمر يسقط من أطراف الثوب .

وعرضت لجابر وأصحابه أثناء الحفر كدية شديدة، فنزل رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وضربها بالمعول، فعادت كثيباً أهيل ، أي رملاً لا يتمسك، وعرضت لبراء وأصحابه صخرة، فنزل رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة بالمعول فقطع قطعة، وخرج منها ضوء، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، وإني لأنظر إلى قصورها الحمراء الساعة، ثم ضرب الثانية وبشر بفتح فارس، ثم الثالثة وبشر بفتح اليمن، وانقطعت الصخرة.

بين طرفي الخندق :

وأقبلت قريش ومن تبعهم في أربعة آلاف، ومعهم ثلاثمائة فرس، وألف بعير، يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، فنزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة.

وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف، فنزلوا إلى جانب أحد، وكان قدوم هذا الجيش العرمرم إلى أسوار المدينة بلاء شديداً ومخيفاً جداً، كما قال الله – تعالى –:﴿ ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب: 10-11].

فثبت الله المؤمنين، كما قال ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 22].

، أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقالوا: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: 12].

واستخلف رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على المدينة ابن أم مكتوم، وجعل النساء والذرارى في الآطام، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع وتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار .

وبعد أن استقر المشركون وتهيأوا تقدموا نحو المدينة، فلما اقتربوا من المسلمين فوجئوا بخندق عريض يحول بينهم وبين المسلمين، فبهتوا، وقال أبو سفيان: تلك مكيدة ما عرفتها العرب، فأخذوا يدورون حوله في طيش وغضب، يطلبون نقطة يعبرون منها، والمسلمون يرشقونهم بالنبل، حتى لا يقتربوا منه، فيتمكنوا من الاقتحام ، أو من إهالة التراب وبناء الطريق عليه .

واضطر المشركون إلى فرض الحصار على المدينة، واضطر المسلمون إلى الاستمرار في الدفاع، حتى فاتت منهم ومن رسول الله- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصلوات، ولم يتمكنوا من أدائها إلا بعد غروب الشمس، أو قريباً من ذلك، ولم تكن صلاة الخوف قد شرعت حينذاك ، وأصيب في أثناء المراماة عدد قليل من الطرفين، وبلغ عدد قتلى المشركين عشرة، وقتلى المسلمين ستة ، وأصيب سعد بن معاذ بسهم قطع أكحله، فدعا الله أن يبقيه إن كان قد بقي من حرب قريش شيء، وإلا فيجعل موته في هذا الجرح، ثم قال: في دعائه: « ولا تمتني حتى تقر عيني من قريظة » .

-غدر بني قريظة وأثره على سير الغزوة :

كانت قريظة في عهد رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقد سبق ذكره – فجاء حيي بن أخطب سيد بني النضير، في أثناء هذه الغزوة، إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة فحسن له الغدر، وأغراه على نقض العهد، فنقض كعب العهد، وقام إلى جانب قريش والمشركين .

وكانت قريظة في جنوب المدينة، والمسلمون في شمالها، ولم يكن من يحول بين قريظة وبين نساء المسلمين وذراريهم، فكان الخطر عليهم شديداً، وبلغ الخبر رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأرسل مسلمة بن أسلم في مائتين وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة ذراري المسلمين، وأرسل

سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في رجال من الأنصار يستجلون له الخبر، فوجدوا اليهود على أخبث ما يكونون، فقد جاهروا بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – ، وقالوا: من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فرجعوا وقالوا لرسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – عضل وقارة: «يعني أن قريظة على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع» .

وتفطن الناس، فاشتد خوفهم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10-11].

ونجم النفاق حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمل على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وقال آخرون: ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: 13]. ، وأراد فريق منهم الفرار فاستأذنوا النبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – وقالوا محتالين: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: 13].، وما هي بعورة .

قلق رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ – حين بلغه غدرهم، فتقنع بالثوب واضطجع، ومكث هكذا طويلاً، ثم نهض وقال: الله أكبر، وبشر المسلمين بالفتح والنصر .

-افتراق الأحزاب ونهاية الغزوة :

جاء في أثناء هذه الظروف القاسية نعيم بن مسعود الأشجعي، وهو من غطفان، وكان صديقاً لقريش واليهود، فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت ، فقال : أنت رجل واحد ، وماذا عسى أن تفعل، ولكن خذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة .

ذهب نعيم إلى قريظة، فلما رأوه أكرموه، فقال: تعرفون ودي لكم، وخاصة ما بيني وبينكم، وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني، قالوا : نعم ، قال : قد رأيتم ما وقع لبني قينقاع، والنضير، وقد ظاهرتم قريشاً وغطفان، وهم ليسوا مثلكم ، فالبلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره ، وأما بلدهم وأموالهم ونساؤهم

فبعيدة ، فهم إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا لحقوا ببلادهم ، وتركوكم ومحمداً ينتقم منكم كيف يشاء ، قالوا : فما العمل ؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن.

قالوا : لقد أشرت بالرأي .

ثم توجه نعيم إلى قريش واجتمع برؤسائهم، وقال: تعلمون ودي لكم ونصحي إليكم ، قالوا : نعم. قال: فإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني، قالوا : نفعل، قال: فإن يهود قد ندموا على نقضهم عهد محمد، وخافوا أن ترجعوا وتتركوهم معه، فراسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن، ويدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فرضي بذلك ، فاحذروهم ، وإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك .

وبهذا التدبير الحكيم تشككت النفوس وتشققت، وأرسل أبو سفيان وفداً إلى قريظة يدعوهم إلى القتال غداً، فقالوا ، إن اليوم يوم السبت، ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدي فيه، ثم إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن منكم، لكي لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم، فقالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، وأرسلت قريش إلى اليهود تقول لهم : لا نرهنكم أحداً، واخرجوا للقتال، فقالوا صدقكم والله نعيم، فخارت عزائم الفريقين وتخاذلوا.

أما المسلمون فكانوا يدعون: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»، وابتهل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى ربه -عَزَّ وَجَلَّ-: « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » فأرسل الله عليهم ريحا وجنوداً من الملائكة، فزلزلوهم وقذفوا في قلوبهم الرعب، وكفأت الريح قدورهم، وقلعت خيامهم، وضربهم البرد القارس حتى لم يقر لهم قرار، وبدأوا يتهيؤون للرحيل .

وأرسل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حذيفة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إليهم ، ليأتي بخبرهم، فذهب ودخل بينهم ، ثم رجع ، ولم يجد مس البرد ، فلما رجع أخبر برحيل القوم ونام. فلما أصبح المسلمون رأوا ساحة القتال من جهة الكفار ليس فيها داع ولا مجيب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25].

كانت بداية هذه الغزوة في شوال سنة 5هـ ، ونهايتها بعد نحو شهر في ذي القعدة، وكانت أكبر محاولة قام بها أعداء الإسلام لضرب المدينة، وللقضاء عليها، وعلى الإسلام والمسلمين، ولكن الله خيبهم، ورد كيدهم في نحورهم، وكان فشلهم بمجموع هذه القوات يعني أن الطوائف الصغيرة والمتفرقة أولى أن لا تجترئ على التوجه إلى المدينة، وقد أخبر بذلك النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال: الآن نغزوهم، لا يغزونا ، نحن نسير إليهم .

-غزوة بني قريظة:

رجع رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الخندق ونزع السلاح والثياب، وبينما هو يغتسل في بيت أم سلمة جاءه جبريل -- عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمره بالنهوض إلى بني قريظة، وقال : إني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، ثم سار في موكبه من الملائكة.

أما رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأعلن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، وقدمه في جماعة إليهم، فلما رأوه سبوا الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقالوا قبيحاً، وبادر المسلمون في الخروج، وأدركت بعضهم العصر في الطريق فمنهم من صلى ، ومنهم من أخر حتى وصل إلى بني قريظة ، وخرج رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في موكب المهاجرين والأنصار حتى نزل على بئر من آبارهم اسمها: « أنا » .

وألقى الله في قلوبهم الرعب، فتحصنوا في حصونهم، ولم يجترءوا على القتال، وحاصرهم المسلمون بشدة، فلما طال عليهم الحصار أرادوا أن يستشيروا بعض حلفائهم من المسلمين، فطلبوا من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يرسل إليهم أبا لبابة ليستشروه، فأرسله ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا : أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم، ومع طول الحصار انهارت معنويات بني قريظة، حتى نزلوا بعد خمس وعشرين ليلة على حكم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فاعتقل الرجال،

وجعل النساء والذراري بمعزل عنهم في ناحية، وطلب حلفاؤهم الأوس أن يحسن إليهم، كما فعل ببني قينقاع حلفاء الخزرج، فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى، قال: فذاك إلى سعد بن معاذ، قالوا : قد رضينا .

وكان سعد في المدينة للجرح الذي أصابه في أثناء غزوة الخندق، فجاءوا به راكباً على حمار، فلما قرب من رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال: قوموا إلى سيدكم، فقاموا إليه، وأحاطوا به من جانبيه، يقولون: يا سعد ! أحسن في مواليك ، وهو ساكت لا يجيب، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فلما سمعوا ذلك رجع بعضهم إلى المدينة ونعى إليهم القوم .

ولما نزل سعد، وأخبر بنزول قريظة على حكمه، حكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات، وعلى إثر هذا القضاء الذي قضى به سعد بن معاذ أتي ببني قريظة إلى المدينة، فحبسوا في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم ذهب بهم إلى هذه الخنادق أرسالاً أرسالاً ، وضربت أعناقهم فيها، وكانوا أربعمائة، وقيل: ما بين الستمائة إلى السبعمائة .

وقتل معهم حيي بن أخطب سيد بني النضير، وكان من زعماء اليهود العشرين الذين حرضوا قريشاً وغطفان على غزوة الأحزاب، ثم كان قد جاء إلى قريظة، وأغراهم على نقض العهد، حتى غدروا بالمسلمين في أحرج ساعة من حياتهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن يكون معهم، يصيبه ما يصيبهم، فكان معهم في حصونهم أثناء الحصار والاستسلام حتى القتل.

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة سعد بن معاذ، وكان في خيمة في المسجد النبوي، ليعوده النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من قريب، فمرت عليه شاة فانتقض جرحه، وانفجر من لبته، فسال الدم الغزير حتى توفي لأجله، وحملت جنازته الملائكة مع المسلمين، واهتز عرش الرحمن لموته.

خامساً: الغزوات التي حدثت في السنة السادسة للهجرة

-غزوة بني لحيان :

بنو لحيان هم الذين كانوا قتلوا المسلمين بالرجيع، وكانوا متوغلين في الحجاز إلى حدود عسفان، فأخر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أمرهم ، حتى إذا تخاذلت الأحزاب واطمأن من الأعداء استعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج إليهم في الربيع الأول سنة 6هـ ، في مائتين من الصحابة ومعهم عشرون فرساً، وأسرع السير إليهم حتى بلغ بطن غران حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم، ودعا لهم، وأقام في ذلك المكان يومين، أما بنو لحيان ففروا في رءوس الجبال، فلم يجد منهم أحداً ، وأرسل عشرة فوارس إلى عسفان لتسمع بهم قريش فيداخلهم الرعب، فذهبوا إلى كراع الغميم، ثم رجع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى المدينة بعد أن غاب عنها أربع عشرة ليلة .

-عمرة الحديبية:

أري رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في المنام ، وهو في المدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فأخبر بذلك المسلمين ، وأخبر أنه يريد العمرة ، واستنفر الأعراب الذين حوله ، فأبطأوا ، وظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وتخلصوا قائلين : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا .

وخرج رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة 6هـ ، في ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، وساق معه الهدي، ليعلم الناس أنه لم يخرج محارباً بل معتمراً، فلما بلغ ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة .

ثم سار حتى بلغ عسفان، فجاءه أحد عيونه ممن أرسلهم يستطلعون الامر وأخبره أن قريشاً مجمعون على القتال ، وصد المسلمين عن البيت الحرام، وكانت قريش قد نزلوا بذي طوى، وأرسلوا خالد بن الوليد في مائتي فارس إلى كراع الغميم ، قريباً من عسفان ، وليسد الطريق النافذ إلى مكة، وجمعوا الأحابيش ليعينوهم، فاستشار رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هل يهاجم على أهالي المجتمعين من الأحابيش، أو يقصد البيت، فمن صده يقاتله ؟ فقال أبو بكر -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-: جئنا معتمرين ، ولا مقاتلين، فمن حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقبل النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هذا الرأي .

ورأى خالد المسلمين في الصلاة الظهر، وهم يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة ، لو كنا حملنا عليهم، ثم قرر أن يهجم أثناء صلاة العصر ، فأنزل الله صلاة الخوف بين الظهر والعصر، ففاتته الفرصة .

وأخذ رسول الله- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طريقاً آخر غير طريقهم، فسلك ذات اليمين من أسفل مكة، حتى بلغ ثنية المرار مهبط الحديبية ، ثم قال : والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت ، فتقدم حتى نزل بالحديبية .

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة – وكانوا ناصحين لرسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأخبره أن قريشاً مستعدون لقتاله وصده عن البيت الحرام ، فأخبره رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه ما جاء إلا للعمرة ، وما جاء للقتال ، وأنه مستعد للهدنة والصلح ، ولكن إن أبت قريش إلا القتال فإنه يقاتلهم حتى تقطع عنقه ، أو ينفذ الله أمره .

-عثمان بن عفان -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-رسولاً إلى قريش ، وبيعة الرضوان :

قرر رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - إرسال رسول إلى قريش يؤكد لهم أنه ما جاء إلا للعمرة ، فأرسل عثمان بن عفان -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، وأمره أيضاً أن يأتي المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بمكة ، فيبشرهم بقرب الفتح ، وأن الله مظهر دينه ، حتى لا يستخفي في مكة أحد بالإيمان .

دخل عثمان -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- في مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي ، فبلغ الرسالة وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت ، فأبى أن يطوف ورسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ممنوع ، وحبست قريش عثمان -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم، ثم يرسلوه مع الجواب – وشاع بين المسلمين أنه قتل، وقَتْلُ الرسول يعني الإعلان عن الحرب، فلما سمع رسول الله - - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلك قال : لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس وهو تحت شجرة ، أن يبايعوه على القتال ، فثار الناس إليه ، وبايعوه – بحماس – على الموت ، وعلى أن لا يفروا، وأخذ رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - إحدى يديه بالأخرى ، وقال : هذه عن عثمان ، ولما انتهت البيعة جاء عثمان -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- ، وأنزل الله في فضل هذه البيعة ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18].

، ومن هنا سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان .

-عقد الصلح (صلح الحديبية):

سمعت قريش بهذه البيعة فداخلهم رعب عظيم، وأسرعوا بإرسال سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فجاء وتكلم طويلاً حتى قبل منه رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - الشروط الآتية :

1 - أن الرسول - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - يرجع مع المسلمين هذا العام، ولا يدخل مكة، ويدخلها العام القابل، فيقيم بها ثلاثة أيام ، ولا يكون معه من السلاح إلا بالسيف في القراب.

2 - توضع الحرب بين الفريقين عشر سنين .

3 - من أراد أن يدخل في عهد محمد - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه .

4- من التجأ من قريش على المسلمين يرده المسلمون إلى قريش ، ومن التجأ من المسلمين إلى قريش لا ترده قريش إلى المسلمين .

ثم دعا علياً وأملى عليه أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: ما ندري ما الرحمن، اكتب: باسمك اللهم. فأمره رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يكتب ذلك ، ثم أملى : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبدالله ، فقال : أني رسول الله وإن كذبتموني، وأمر علياً أن يمحو ذلك ، ويكتب محمد بن عبدالله ، فامتنع علي عن المحو ، فمحاه- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بيده الشريفة ، وكتبت نسختان ، نسخة لقريش ، ونسخة للمسلمين .

ولما فرغ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من قضية الكتاب قال للمسلمين: قوموا فانحروا ، فما قام أحد. حتى قالها ثلاث مرات فما قام أحد ، فدخل على أم سلمة وذكر لها ذلك ، فأشارت أن يقوم هو فينحر بدنه ويحلق رأسه ، ولا يكلم أحداً، ففعل ، وقد نحر جملاً لأبي جهل كان في أنفه برة من فضة ، ليغيظ به المشركين ، فلما رأى الناس قاموا فنحروا وحلقوا.

-قضية النساء المهاجرات :

وبعد إبرام الصلح ، والحل من العمرة ، جاءت نسوة مؤمنات ، فطلب أولياؤهن الكفار من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يردهن ، فامتنع عن ذلك، بدليل أنهن لم يدخلن في العهد، وأنزل الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: 10].

فحرم المؤمنات على الكفار ، والكافرات على المؤمنين .

-أثر الصلح على الدعوة :

إشارة إلى بعض الحكم التي تضمنها صلح الحديبية :

قال ابن القيم ، وهي أكبر وأجل من أن يحيطها بها إلا الله الذي أحكم أسبابها فوقفت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده ،

1 – فمنها انها مقدمة بين يدي الفتح الأعظم ، وهذه سنته سبحانه في الأمور العظام شرعا وقدرا أن يوطئ لها بين يديها بمقدمات، وتواطنات تؤذن بها وتدل عليها .

2 – ومنها أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح ، فإن الناس أمن بعضهم بعضاً واختلط المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة أمنين ، وظهر من كان مختفياً بالإسلام ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل ، ولهذا أسماه الله فتحاً مبيناً ، قال مجاهد : هو ما قضى الله له بالحديبية .

فكانت تلك الشروط من أكبر الجند التي أقامها المشترطون لحزبهم ، فذلوا من حيث طلبوا العز ، وعز المسلمون من حيث انكروا الله ، فأنقلب العز بالباطل ذلاً بحق .



مكاتبة الملوك والأمراء

ولما عاد رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من عمرة الحديبية ، وقد أبرم الصلح مع قريش ، وأمن جانبهم ، بدأ بإرسال الكتب إلى الملوك والأمراء ، يدعوهم فيها إلى الإسلام، وهذه هي تلك الكتب بإيجاز :

1- **كتابه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى النجاشي : أصحمة بن الأبجر ملك الحبشة :**

وكتب فيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة ،سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الإسلام ، فإني أنا رسوله ، فأسلم تسلم : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

، فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك » .

وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري ، فلما أخذه النجاشي وضعه على عينيه ، ونزل عن سرير ، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب ، وكتب إلى النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بإسلامه وبيعه ، وزوج أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان بالنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأصدقها من عنده أربعمائة دينار ، وأرسلها والمهاجرين في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري ، فقدم بهم والنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بخيبر .

مات النجاشي هذا في رجب سنة 9هـ فنعاه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوم وفاته ، وصلى عليه صلاه الغائب .

2- كتابه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى المقوقس ملك الإسكندرية :

وكتب النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كتاباً إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم »من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

وبعث الكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة ، فكلمه حاطب وأبلغه الكتاب ، فأكرمه المقوقس ، ووضع الكتاب في حق من عاج ، وختم عليه، واحتفظ به، وكتب إلى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقر فيه بأن نبياً قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، ولكنه لم يسلم ، وأهدى جاريتين : مارية وسيرين ، وكان لهما في القبط مكان عظيم، وأهدى كسوة ، وبغلة اسمها دلدل ، فاختار النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مارية لنفسه، والبغلة لركوبه ، ووهب سيرين لحسان بن ثابت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–.

3-كتابه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى كسرى ملك فارس :

كتب إليه « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة :

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[يس: 70].

فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

وبعث الكتاب مع عبدالله بن حذافة السهمي ، وأمره أن يدفعه على عظيم البحرين ، ليدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرئ عليه الكتاب مزقه ، وقال : عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي ، فلما بلغ ذلك رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : « مزق الله ملكه » ووقع كما

قال ، فقد انهزم جيشه أمام الروم هزيمة منكرة ، ثم انقلب عليه ابنه شيرويه ، فقتله وأخذ ملكه ، ثم استمر فيه التمزق والفساد إلى أن استولى عليه الجيش الإسلامي في زمن عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ، ثم لم تقم لهم قائمة .

4-كتاب النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى قيصر ملك الروم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، وأسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين : ﴿ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: 64].

وبعث الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ، ليدفعه إلى قيصر ، وكان قيصر قد جاء من حمص إلى بيت المقدس ماشياً على قدميه، شكراً لله تعالى على ما حصل له من الفتح والانتصار على الفرس ، فلما جاءه الكتاب أرسل رجاله ليأتوا برجل من العرب يعرف النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فوجدوا أبا سفيان في ركب من قريش ، فأتوا بهم إلى هرقل ، فدعاهم هرقل في مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، فسألهم أيهم أقرب إليه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نسباً ، فأخبروه بأنه أبو سفيان، فأدناه منه وأجلس بقية الناس وراءه ، وقال لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل – أي النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فإن كذبني فكذبوه. فاستحيى أبو سفيان أن يكذب .

وسأله هرقل : كيف نسبه فيكم ؟

فقال : هو فينا ذو نسب .

فقال : فهل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟

قال : لا .

قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

قال : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قال : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قال : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قال : لا .

قال : فهل يغدر ؟

قال : لا .

ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .

قال : فهل قاتلتموه ؟

قال : نعم الحرب بيننا وبينه سجال . ينال منا وننال منه .

قال : وماذا يأمركم ؟

قال : يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم ، يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

قال هرقل معلقاً على هذا الحوار : ذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وذكرت أنه لم يقل أحد منكم هذا القول قبله ، قلت : فلو كان كذلك لقلت : رجل يأتم بقول قيل قبله ، وذكرت أنه لم يكن من آبائه من ملك ، قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، ذكرت أنكم لم تكونوا تتهمونه بالكذب ، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ، وذكرت أن ضعفاء الناس اتبعوه ، وهم أتباع الرسل، وذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وذكرت أنه لا يرتد منهم أحد ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، ونهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول

حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

ثم دعا الكتاب فقرأه ، فارتفعت الأصوات وكثر اللغط ، فأخرج أبا سيفان ومن معه ، فلما خرج أبو سفيان قال لأصحابه : لقد أَمِرَ (أي زاد وعَظُم) أَمْرُ ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملك بني الأصفر ، ولم يزل أبو سفيان موقناً بعده بظهور أمر رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حتى وفقه الله للإسلام .

وأجاز هرقل دحية بن خليفة الكلبي بمال وكسوة ، ثم رجع إلى حمص، فأذن لعظماء الروم في دسكرة له ، وأمر بأبوابها فأغلقت ، ثم قال : يا معشر الروم ! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم ؟ فتتابعوا هذا النبي ، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم قال: ردوهم علي ، فقال لهم: إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه ، فرضي بالدنيا عن الآخرة فخاب وخسر.

ويتبين من هذا أن قيصر عرف النبي – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وصدق نبوته تمام المعرفة ، ولكن غلب عليه حب ملكه فلم يسلم ، وباء بإثمه وإثم رعيته كما قال النبي– صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

وكتب رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كتابا إلى أمير دمشق وأمير بُصْرَى الذي قتل الرسول الذي بعثة النبي – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – له فشق ذلك على رسول الله فأرسل له جيشا كما سنبين في موضعه (غزوة مؤته) ، كما بعث رسله إلى أمير اليمامة وملك البحرين فلم يسلموا كلهم.

سادساً: الحوادث والغزوات في السنة السابعة للهجرة

-غزوة الغابة :

وقعت هذه الغزوة في السابع من شهر محرم من السنة السابعة من الهجرة النبوية وسببها إغارة عبدالرحمن بن عيينة بن حصن الفزاري من بنو غطفان على إبل للمسلمين بالغابة فخرج رسول الله- صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - بخمسمائة رجلاً لمطاردته فبقوا في مكان اسمه(ذو قَرَد) قريباً من المدينة مدة خمسة أيام وقُبض عليه وقتلوه وأخصلوا الإبل المسروقة، وهرب باقي المشركين ورجع المسلمون إلى المدينة.

-غزوة خيبر:

في المحرم سنة سبع من الهجرة خرج رسول الله - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - إلى خيبر، وجاء من تخلف عن الحديبية ليؤذن له فنادى في الناس أن لا يخرجوا معه إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا يعطى لهم منه شيء، فلم يخرج معه إلا أصحاب الشجرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري .

ثم سلك الجادة المعروفة الموصلة إلى خيبر، حتى إذا كان في منتصف الطريق تقريباً اختار طريقاً آخر يوصله إلى خيبر من جهة الشام ، ليحول بينهم وبين فرارهم إلى الشام .

وبات الليلة الأخيرة قريباً من خيبر، ولم تشعر به اليهود ، فلما أصبح صلى الفجر بغلس ، ثم ركب هو والمسلمون متجهين إلى مساكن خيبر، أما اليهود فقد خرجوا ليعملوا في أرضهم وهم لا يعلمون، فلما رأوا الجيش رجعوا هاربين يقولون : محمد ، والله محمد والخميس. فقال النبي - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - : « الله أكبر ، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح

المنذرين » ، وخيبر على بعد 171 كيلومتراً شمالي المدينة وكانت مساكنها منقسمة إلى عدة حصون

وكان اليهود قد نقلوا نساءهم وذراريهم إلى حصن الشق ليلاً ، وقرروا البروز للقتال في ذلك الصباح ، فلما ذهب إليهم علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وجدهم متجهزين للقتال، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورفضوا ، ودعا مرحب إلى المبارزة ، وهو يخطر بسيفه ويقول :

قد علمتَ خيبرُ أنّي مُرَحّبُ

شاكي السلاح بطل مُجَرّبُ

إذا الحروبُ أَقْبَلَتْ تُلَهْبُ

فبرز له عامر بن الأكوع ، وهو يقول :

قد عَلِمَتْ خيبرُ أَني عامرٌ   شاكي السلاحِ بطلُ مغامرْ

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب في ترس عامر ، فذهب عامر ليتناول بسيفه ساق اليهودي ، وكان سيفه قصيراً ، فلما يصل إليه ، بل رجع إلى عامر فأصاب ركبته ، فمات بسببه فيما بعد ، فقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيه : إن له لأجرين، إنه لجاهد مجاهد ، قل عربي مشى بها – أي بالأرض – مثله .

أما مرحب فبرز له علي وهو يرتجز :

أنا الذي سمتني أمي حَيْدَرَهْ

كليث غابات كريه المَنْظره

أُوفِيهم بالصاعِ كيلُ السَّنْدَرَهْ

وضرب رأس مرحب فقتله، ثم خرج أخوه ياسر يدعو إلى المبارزة ، فبرز له الزبير بن العوام ، وألحقه بأخيه ، ثم دار القتال المرير، قتل فيه عدد من سراة اليهود ، وانهارت معنوياتهم ، فانكشفوا عن مواقفهم، وتبعهم المسلمون حتى دخلوا حصونهم وغنموا ما فيها ، وانهزم اليهود إلى بعض حصونهم وقد غنم المسلمون كثيراً من الطعام والسلاح ، والذهب

والفضة والجواهر، وبهذا فتحت خيبر وصارت تحت القيادة الإسلامية بعد قتل ثلاثة وتسعين رجلاً من اليهود وسبيت نسائهم وذراريهم ومنها صفية بنت حيي بن أخطب التي كانت في سهم دحية الكلبي فاشتراها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأعتقها وتزوجها.

-غدر اليهود وقصة الشاة المسمومة :

وبعدما عاد الهدوء ، وذهب الخوف عاد اليهود إلى خبثهم ، وتآمروا على قتل النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأهدوا إلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - شاة مسمومة بواسطة امرأة سلام بن مشكم : أحد كبرائهم ، وقد علمت أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعجبه الذراع، فأكثرت السم فيه ، وتناول منه رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولاكها، ثم لفظها وقال: إنها شاة مسمومة ، وسأل المرأة واليهود فاعترفوا بجريمتهم ، قالوا: قلنا : إن كان ملكاً نستريح منه ، وإن كان نبياً لا يضره ، فعفا عنهم وعن المرأة، ثم إن بشر بن البراء بن معرور مات من أجل هذا السم فأمر بقتل المرأة قصاصاً .

غزوة ذات الرقاع

ولما رجع رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من خيبر ، واطمأن بالمدينة سمع بتجمع البدو من بني أنمار وثعلبة ومحارب ، فاستعمل على المدينة عثمان بن عفان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ، وقصد في نحو سبعمائة من الصحابة موضعاً يقال له نخل ، على بعد يومين من المدينة ، فلقي جمعاً من غطفان ، فتقارب الفريقان ، وأخاف بعضهم بعضاً ، ولم يدر القتال ، وأقيمت الصلاة ، فصلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا ، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين ، فكانت له أربع وللقوم ركعتان ، وهي صلاة الخوف ، ولها صور أخرى مروية في الأحاديث ، ثم ألقى الله الرعب في قلب العدو فتفرق جمعه، وعاد رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى المدينة .

وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع ، لأن أقدام المسلمين نقبت لأجل المشي ، فلفوا عليها الخرق ، وهي الرقاع ، وقيل : لأن أراضيها وجبالها ذات ألوان مختلفة كأنها رقاع ، قيل : بل هي اسم لمكان الغزوة .

ومن أروع ما وقع في هذه الغزوة أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نزل ذات يوم تحت شجرة ظليلة ، فعلق بها سيفه ونام ، وتفرق الناس تحت الأشجار وناموا، فجاء رجل من المشركين ، فأخذ سيف رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو نائم ، فاستيقظ وهو في يده صلتا فقال : أتخافني ؟ قال : لا. قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله ، فسقط السيف من يده. فأخذه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقال : من يمنعك مني ؟ قال : كن خير آخذ ، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ، ولكنه أعطى العهد أنه لا يقاتله ، ولا يكون مع قوم يقاتلونه ، فخلى سبيله ، فذهب إلى قومه ، وقال : جئتكم من عند خير الناس ، لما رأى من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من مكارم الأخلاق ونبل الصفات، وقيل أن بعض قومه قد أسلم.

-عمـــرة القضـاء:

وفي ذي القعدة سنة 7هـ خرج رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للعمرة التي تم الاتفاق عليها في صلح الحديبية ، واستخلف على المدينة أبارهم الغفاري ، وساق معه ستين بدنة ، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي ، وحمل معه السلاح حذراً من غدر قريش ، واستعمل عليه بشير بن سعد ، وكان معه مائة فرس عليها محمد بن مسلمة .

وأحرم من ذي الحليفة ولبىَّ، ولبىَّ معه المسلمون ، وواصل سيره حتى إذا بلغ وادي يأجج وضع السلاح ، وخلف عليها أوس بن خولي الأنصاري، في مائتين من الصحابة ، وتقدم بسلاح الراكب: السيوف في القرب، فدخل مكة من ثنية كداء التي تطلعه على الحجون، وهو على ناقته القصواء ، والمسلمون متوشحون السيوف ، محدقون به، يلبي ويلبون، حتى دخل المسجد الحرام، فاستلم الحجر الأسود بمحجنه ، ثم طاف – وهو على راحلته – وطاف

معه المسلمون ، ويرملون حول البيت ، كاشفين مناكبهم اليمنى ، شأن الفتوه والقوة ، وعبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - متوحشاً بالسيف ، يقول :

خَلَّوا بني الكفارِ عن سبيلِهِ   خَلَّوا ، فكلَ الخيرِ في رسولِهِ

اليوم نضربُكم على تأويله   كما ضربْنَاكم على تَنْزِيلهِ

ضَرباً يُزِيل الهامَ عن مَقِيله   ويُذْهِلُ الخَلِيلَ عن خَلِيلِهِ

وكان المشركون جالسين على جبل قعيقعان – شمالي الكعبة – وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فلما رأوا المسلمين يرملون قالوا : هؤلاء أجلد من كذا كذا ، وكان رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أمرهم أن يرملوا في الأشواط الثلاثة الأولى ليرى المشركين قوتهم، إلا ما بين الركن اليماني والحجر الأسود ، فإنه في الجنوب ، في جهة لم يكن يراها المشركون .

فلما فزع من الطواف سعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، ثم نحر هديه عند المروة ، وحلق رأسه ، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث رجالاً من الصحابة إلى بطن يأجج ليكونوا على السلاح ، ويأتي من بقي هناك من الصحابة فيؤدوا نسكهم .

وأقام بمكة ثلاثة أيام، تزوج خلالها ميمونة بنت الحارث الهلالية – وكانت زوجة سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، وخالة ابن العباس – فلما بلغتها الخطبة وكل أمرها إلى العباس، فزوجها العباس بالنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

وفي صبيحة اليوم الرابع غادر رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مكة راجعاً إلى المدينة ، فلما بلغ سرف على بعد تسعة أميال من مكة نزل بها وأقام ، وهناك زفت إليه ميمونة – -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- – فبنى بها ، ثم عاد إلى المدينة فرحاً مسروراً بما حباه الله من تصديق رؤياه ، وشرفه بطواف بيته .

وبعد رجوعه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من عمرة القضاء أرسل عدة سرايا إلى جهات متعددة أهمها سرية مؤتة، ثم سرية ذات السلاسل.

سابعاً: الغزوات التي وقعت في السنة الثامنة من الهجرة

-معركة مؤتة:

سبق في ذكر كتب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى الملوك والأمراء أن شرحبيل بن عمرو الغساني كان قد قتل الحارث بن عمير -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ، حامل كتاب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى عظيم بصرى، وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب، فلما بلغ ذلك رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اشتد عليه فجهز جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمر عليهم زيد بن الحارثة، وقال: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة ، وعقد لواءًا أبيض حمله زيد بن حارثة .

وأوصاهم أن يأتوا المكان الذي قُتل الحارث بن عمير ويدعوا من فيه إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله وقاتلوهم ، وقال لهم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :«اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغيروا، ولا تَقتلوا وليدًا ولا امرأةً، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلًا بصومعة، ولا تقطعوا نخلًا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء» .

وشيع الجيش إلى ثنية الوداع ، ثم ودعه ، فسار الجيش حتى نزل معان – بجنوب الأردن – فبلغهم أن هرقل نزل بمآب من البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من منتصرة العرب مائة ألف من لخم وجذام وبلي ، فتشاوروا ليلتين هل يكتبون ذلك إلى رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ويطلبون منه المدد – أم يقدمون على الحرب ؟ فشجعهم ابن رواحة بأن الذي تكرهونه – وهي الشهادة – إنما خرجتم تطلبونه، ونحن ما نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وإنما نقاتل بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، وما هي إلا إحدى الحسنيين ، إما الظهور وإما

الشهادة ، فقالوا : صدق والله ابن رواحة ، فتقدموا ونزلوا بمؤتة ، وتعبؤوا وتهيؤوا للقتال ، ودارت معركة عنيفة ورهيبة ، وعجيبة في تاريخ البشر : ثلاثة آلاف مقاتل يواجهون جيشاً عرمرماً – مائتي ألف – ويصمدون في وجهه ، وهذا الكم الهائل من المدججين بالسلاح يهجم عليهم طول النهار ، ويفقد كثيراً من أبنائه وأبطاله ، ولا ينجح في دحرهم .

أخذ راية المسلمين زيد بن حارثة فقاتل وقاتل ، ثم قاتل وقاتل حتى شاط في رماح القوم ، وخر شهيداً في سبيل ربه ، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل وقاتل ، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء وعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ، فلم يزل رافعاً لها حتى قطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه حتى أبقاها تخفق في جو السماء، إلى أن قتل بعد أن أصابته بضع وتسعون من طعنة ورمية ، كل ذلك فيما أقبل من جسده، وجاءت نوبة عبدالله بن رواحة فأخذ الراية وتقدم، واقتحم عن فرسه المعمعة ، ثم لم يزل يقاتل حتى قتل ، وحتى لا تسقط الراية أخذها ثابت بن أرقم وقال للمسلمين : اصطلحوا على رجل ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد، وبذلك انتقلت الراية إلى سيف من سيوف الله ، وتقدم خالد بن الوليد فقاتل قتالاً منقطع النظير حتى انقطعت في يده تسعة أسياف ، وأخبر رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أصحابه بالمدينة في اليوم نفسه بمقتل القادة الثلاثة رضوان الله عليهم ، وبانتقال القيادة إلى خالد بن الوليد ، وسماه سيفاً من سيوف الله .

وبانتهاء النهار رجع الفريقان إلى مقرهما ، فلما أصبحوا غير خالد -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- ترتيب العسكر ، فجعل الساقة مقدمة ، والمقدمة ساقة ، والميسرة ميمنة ، والميمنة ميسرة ، فظن العدو أن المدد قد وصل للمسلمين فداخله الرعب ، وبعد مناوشة خفيفة بدأ خالد يتأخر بالمسلمين ، فلم يجترئ العدو على التقدم ، خوفاً من أن تكون خدعة ، فانحاز المسلمون إلى مؤتة ، ومكثوا سبعة أيام يناوشون العدو ، ثم تحاجز الفريقان وانقطع القتال ، لأن الروم ظنوا أن الإمدادات تتوالى على المسلمين، وأنهم يكيدون بهم ليجروهم إلى الصحراء حيث لا يمكنهم التخلص ، وبذلك كانت كفة المسلمين راجحة في هذه الغزوة .

وقتل في هذه الغزوة اثنا عشر رجلاً من المسلمين ، أما عدد قتلى العدو فلم يعرف، إلا أنهم قتلوا بكثرة .

-سرية ذات السلاسل :

نظراً لموقف عرب الشام في معركة مؤتة رأى رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - القيام بعمل حكيم يكفهم عن نصرة الرومان والقيام بجانبهم ، فأرسل إليهم عمرو بن العاص -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- في ثلاثمائة من الصحابة ، ومعهم ثلاثون فرساً ، ليستأنفهم ، لأن أم أبيه كانت من قبيلة بلي- إحدى قبائلهم - فإن أبوا فليلقنهم درساً على قيامهم بجانب الروم ، فلما قرب منهم، بلغه أن لهم جمعاً كبيراً ، فاستمد من رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فأمده بمائتين من سراة المهاجرين والأنصار ، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح ، وكان عمرو بن العاص هو الأمير العام وإمام الصلاة ، فجاء بلاد قضاعة حتى لقي جمعاً ، فلما هجم عليهم فروا وتفرقوا .

والسلاسل بقعة ماء أو بئر عرف بالسلاسل وراء وادي القرى ، إليها نسبت هذه السرية ، لأن المسلمين نزلوا بها ، وكان ذلك في جمادي الآخرة سنة 8هـ ، أي بعد الشهر الذي وقعت فيه معركة مؤتة .

الفتح الأعظم : فتح مكة المكرمة

وفي رمضان سنة 8 من الهجرة فتح الله تعالى لرسوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مكة المكرمة ، وهو الفتح الأعظم ، وأعز الله به دينه ورسوله ، وأنقذ به بيته وبلده ، واستبشر به أهل السماء ، ودخل به الناس في دين الله أفواجاً .

وسببه أن بني بكر دخلوا مع قريش في عهد الحديبية ، وكانت بينهم وبين خزاعة دماء وثأرات في الجاهلية اختفت نارها بظهور الإسلام ، فلما وقعت هدنة الحديبية اغتنمها بنو بكر ، وأغاروا في شهر شعبان سنة 8 هـ على خزاعة ليلاً ، وهم على ماء يقال له : الوتير ، فقتلوا منهم ما يربو على عشرين ، وطاردوهم إلى مكة حتى قاتلوهم فيها ، وأعانتهم قريش سراً برجال وسلاح .

وكانت خزاعة قد دخلت مع المسلمين في عهد الحديبية ، وكان قد أسلم عدد منهم ، فأبلغوا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الخبر ، فقال : والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه .

وأحست قريش بسوء فعلتها، وخافت نتائجها ، فأسرعت بإرسال أبي سفيان إلى المدينة ليوثق العقد ويزيد في المدة، فقدم أبو سفيان المدينة، ودخَل على ابنتِه أمِّ المؤمنين أمِّ حبيبة، فأقبل ليجْلِسَ على فراش النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فطوته عنه فقال لها: يا بُنية، ما أدري، أرغبتِ بِي عن هذا الفراش أم رغبتِ به عنِّي؟

قالت: بل هو فراش رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأنتَ مُشْرِكٌ نَجس، قال : والله لقد أصابك بعدي شر..

ثم جاء رسـول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فكلمـه فلـم يـرد شـيئاً ، فـذهب إلى أبي بكـر لـيكلم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال : ما أنا بفاعل . فأتى عمر فـأبى ، وشـدد في الكـلام ، فـأتى عليا فاعتذر ، وأشار عليه أن يجير بين الناس ويرجع ، ففعل .

أما رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فتجهز للغزو ، وأمر أصحابه بذلك ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ، وكتم الخبر ، ودعا الله : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها في بلادها » .

وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بمسير رسـول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إليهم، وأعطاه امرأة على جُعْل، فـأتى رسـول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الخـبر مـن السـماء، فأرسـل عليا والمقداد والزبير ومرثداً الغنوي ، وقـال: انطلقـوا إلى روضـة خـاخ، فـإن بهـا ظعينـة معهـا كتاب ، فخذوه منها ، فأتوها وطلبوا منها الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقالوا: لتخـرجن الكتاب أو لنجردنك، فأخرجته من عقاصها ، فأتوا به رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فاعتذر بأن له في مكة أهلاً وعشيرة وولداً ، وليسـت لـه فـيهم قرابـة يحمـونهم لأجلها ، فأراد أن يتخذ عندهم يـداً يحمـون بهـا أهلـه ، ولم يفعلـه ارتـداداً عـن الإسـلام ، ولا رضىً بالكفر ، فقال عمر : دعني يا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أضرب عنقه ، فإنه قـد خـان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقـال- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :« إنـه قـد شـهد بـدراً ، ومـا يـدريك لعـل الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فذرفت عينا عمر ، وقـال : الله ورسوله أعلم .

-التوجه إلى مكة :

ولعشر من رمضان سنة 8هـ غادر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المدينة ، متجهاً إلى مكـة ، ومعه عشرة آلاف من المسلمين ، واستعمل على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري ، ولما بلغ الجحفة لقيه عمه العباس مع أهله مسلماً مهاجراً، ثم جاء أبو سفيان مع العباس إلى رسـول الله حين أقترب جيش المسلمين من مكة وأعلن إسلامه ، فقال العباس: يـا رسـول الله ! إن أبـا

سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

دخول رسول الله - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى مكة المكرمة :

وفي الصباح تقدم رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى مكة، فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ لأعلى صوته: يا معشر قريش ! هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا : قاتلك الله. وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، فأسرع الناس إلى بيوتهم وإلى المسجد الحرام.

ولما وصل رسول الله– صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى ذي طوى أمر خالد بن الوليد قائد الميسرة أن يدخل مكة من أسفلها من طريق كَدى حتى يوافيه على الصفا. وأمر الزبير قائد الميمنة وحامل راية رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن يدخل مكة من أعلاها من كداء، ويغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وأمر أبا عبيدة قائد الرجالة ومن لا سلاح له أن يأخذ بطن الوادي حتى ينزل يدي رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

أما الزبير فنصب الراية بالحجون عند مسجد الفتح، وضرب قبة فيها أم سلمة وميمونة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– ، ولم يبرح حتى جاء رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فاستراح قليلاً ، ثم سار، وبجانبه أبو بكر –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–يحادثه، وهو يقرأ سورة الفتح، حتى دخل المسجد الحرام، وحوله المهاجرون والأنصار، فاستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت وهو على الراحلة، ولم يكن محرماً، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81].

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:49] ، والأصنام تتساقط على وجوهها .

-تطهير الكعبة:

لما فرغ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من الطواف دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، وأمر بفتحها، ثم أمر بما فيها من الأصنام فأخرجت وكسرت، وأمر بما فيها من الصور فمحيت.

أخذ البيعة من الرجال والنساء :

ثم أتى الصفا فعلا عليه حيث ينظر على البيت، فرفع يديه يدعو، ثم بايع الناس على الإسلام. وممن أسلم يومئذ أبو قحافة والد أبي بكر الصديق -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- ففرح رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- بإسلامه، ثم بايع النساء بعد الرجال على: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ الممتحنة: 12].

وممن بايع يومئذ من النساء هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، جاءت متنقبة متنكرة، خوفاً على نفسها مما كانت قد فعلت بنعش حمزة، فلما تمت لها البيعة قالت: يا رسول الله ! والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلهم الله من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم ما على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك، فقال النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- : « وأيضاً والذي نفسي بيده »[1] ، وهي التي قالت للنبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- لما شرط على النساء المبايعة ولا يسرقن ولا يزنين (وهل تزني الحرة) كما في فتح الباري، -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- وأرضاها.

وقد جاء بعض الناس ليبايعوا رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- على الهجرة فقال: « ذهب أهل الهجرة بما فيهم، ولا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا » .متفق عليه

-إقامة رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - بمكة :

ولما تم فتح مكة تخوف الأنصار أن يقيم بها رسول الله- صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، لأنها بلده وبلد عشيرته وقومه – وذلك حين كان رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- على الصفا ، رافعاً يديه يدعو – فلما فرغ من الدعاء قال لهم: «معاذ الله ، المحيا محياكم والممات مماتكم» فاطمأن الأنصار وذهب خوفهم وفرحوا .

[1] رواه مسلم

بقي رسول الله- صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - بمكة تسعة عشر يوماً يجدد معالم الإسلام ، ويطهرها من آثار الجاهلية ، وقد جدد أنصاب الحرم ، ونادى مناديه : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره .

-هدم صنم العزّى وسواع ومناة :

ولخمس وعشرين من رمضان بعث رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - خالد بن الوليد - رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-في ثلاثين فارساً إلى نخلة، ليهدم العزى وهيكلها، فتوجه إليها ، وهدمها، وكانت أكبر أصنامهم .

ثم أرسل عمرو بن العاص في رمضان نفسه لهدم سواع ، وهو أعظم صنم لهذيل، كان هيكله برهاط على قرابة 150 كيلو متراً شمال شرقي مكة فذهب إليه وهدمه، وأسلم سادنه لما رأى من عجزه .

ثم بعث سيد بن زيد الأشهلي -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-في رمضان نفسه إلى مناة في عشرين فارساً ، وكانت بالمشلل عند قديد ، وهي صنم كلب وخزاعة وغسان والأوس والخزرج، فأتاها وكسرها، وهدم هيكلها .

غـزوة حنين

ولما تم فتح مكة اجتمعت أشراف قبائل قيس عيلان للشورى، وفي مقدمتها هوزان وثقيف، فقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه. ولا ناهية له عنا، فلنغزوه قبل أن يغزونا، فأجمعوا أمرهم للحرب، واختاروا لقيادتها مالك بن عوف النصري، فتحشد جمع كبير، ونزل بأوطاس، ومعهم نساءهم وذراريهم وأموالهم، وكان فيهم دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأي، فلما سمع أصوات الصبيان والحيوان سأل مالكاً عن ذلك، فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فأشار أن يردهم إلى بلادهم، فلم يقبل مالك رأيه، وجمع المقاتلين في وادي حنين، ونصب فيه كمائن.

وعلم رسول الله - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بتجمعهم فخرج من مكة يوم السبت السادس من شهر شوال، ومعه اثنا عشر ألف مقاتل، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد.

وفي الطريق رأى المسلمون سدرة عظيمة كانت تعلق عليها العرب أسلحتهم، ويذبحون ويعكفون عندها، يقال لها: ذات أنواط. فقال بعضهم لرسول الله - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال :« الله أكبر. قلتم كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. قال : إنكم قوم تجهلون. إنها السنن. لتركبن سنن من كان قبلكم ».

وقال بعضهم نظراً لكثرة الجيش: لن نغلب اليوم. فشق ذلك على رسول الله - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . ولما كان عشية جاء فارس وأخبره بخروج هوزان بظعنهم ونعمهم وشائهم، فتبسم وقال : تلك غنيمة المسلمون غداً إن شاء الله .

وفي الليلة العاشرة من شهر شوال سنة 8هـ وصل رسول الله - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى وادي حنين. فعبأ جيشه سحراً قبل يدخل، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، وأعطى ألوية لقبائل أخرى. ولبس درعين والبيضة والمغفر، ثم بدأت مقدمة الجيش تنحدر بالوادي ، وهي لا تعلم بوجود كمائن العدو فيه ، فبينما هي تنحط فيه إذ العدو يمطر عليهم النبال كأنها جراد منتشر، فاضطربت مقدمة الجيش بهذه المفاجأة، فاختلط أمر المسلمين وكادوا أن يُهزموا ، وأما رسول الله - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فثبت في قليل من المهاجرين والأنصار، وطفق يركض بغلته ليتقدم نحو العدو، وهو يقول :

أنا النبي لا كذب　　　　أنا ابن عبد المطلب

فتلاحقت كتائب المسلمين نحوه واحدة تلو الأخرى ، حتى اجتمع حوله- صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جمع عظيم، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها ، فكر المسلمون على عدوهم واحتدم القتال، فقال - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :« الآن حمي الوطيس»

وأخذ قبضة من تراب فرمي بها وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه، فملأ أعينهم تراباً، فلم يزل حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً، حتى تفرقوا وهربوا، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، حتى أخذوا النساء والذراري، وأسروا كثيراً من المحاربين، وجرح يومئذ خالد بن الوليد جراحات بالغة، وأسلم كثير من مشركي مكة لما رأوا من عناية الله برسوله.

هرب المشركون وتفرقوا ثلاث فرق: فرقة لحقت بالطائف، وهم الأكثر، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بوادي أوطاس قرب حنين ، فأرسل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى أوطاس أبا عامر الأشعري، عم أبي موسى الأشعري - -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- - في جماعة من المسلمين، ففرقهم وظفر بما كان معهم من الغنائم، وقد استُشهد أبو عامر الأشعري في هذه المعركة، وخلفه أبو موسى الأشعري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فرجع مظفراً منصوراً ، وطاردت طائفة من فرسان المسلمين فلول المشركين المنهزمين إلى نخلة، فأدركت دريد بن الصمة، وقتلته .

وأمر رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بجمع الغنائم والسبي، وكانت كثيرة لا تحصى، فجمع ذلك كله بالجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري.

غزوة الطائف

ثم تقدم إلى الطائف، ومر في الطريق بحصن لمالك بن عوف النصري فأمر بهدمه، ولما وصل إلى الطائف وجد العدو قد تحصن به، ومعه قوت سنة، ففرض عليه الحصار، وكان المسلمون نازلين قريباً من العدو، فرشقهم بالنبال حتى أصيب عدد من المسلمون بجراحات، فارتفعوا إلى محل مسجد الطائف اليوم.

واختار المسلمون عدة تدابير لإرغام العدو على النزول، ولكنها لم تنجح، وكان خالد بن الوليد يخرج كل يوم يدعوهم إلى المبارزة، فلم يخرج منهم أحد، ونصب عليهم المنجنيق فلم يؤثر، وحاولوا نقب الحصن فرمى العدو عليهم قطعات من حديد محماة بالنار، فاضطروا إلى الرجوع، ولم يتمكنوا من نقب الجدار، وقطعت أعنابهم ونخيلهم فناشدوا الله والرحم فتركت، ونادى منادي رسول الله - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - أيما عبد نزل إليها من الحصن فهو حر، فنزل ثلاثة وعشرون عبداً فيهم أبو بكرة – تسور حصن الطائف، وتدلى منه ببكرة يستقي عليها، فكناه رسول الله - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - بأبي بكرة - .

وطال الحصار دون جدوى – فقد دام حوالي عشرين يوماً ، وقيل شهراً كاملاً – فاستشار رسول الله - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - نوفل بن معاوية الديلي ، فقال : هم ثعلب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك فأمر بالرحيل .

تقسيم الغنائم والسبي :

وعاد رسول الله - صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - من الطائف إلى الجعرانة، فمكث بها بضعة عشر يوماً لا يقسم الغنائم ، يبتغي أن يقدم هوازن تائبين ، فيحرزوا أموالهم وسباياهم ، فما جاء أحد ، فأخرج الخمس من الغنيمة ، وأعطاها لأناس ضعفاء الإسلام، يتألفهم ، ولأناس لم يسلموا بعد ، ليحبب إليهم الإسلام ، فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية من الفضة ومائة من الإبل، وأعطى مثل ذلك لابنه يزيد، ثم لابنه الآخر معاوية، وأعطى صفوان بن أمية مائة ثم مائة ثم

مائة – أي ثلاثمائة – من الإبل، وأعطى كلا من حكيم بن حزام، والحارث بن الحارث بن كلدة، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وعلقمة بن علاثة، ومالك بن عوف، والعلاء بن الحارثة، والحارث بن هشام، وجبير بن مطعم، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى وغيرهم مائة مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين، وأربعين وأربعين، حتى شاع بين الناس ان محمداً يعطي عطاء ما يخاف الفقر ، فازدحم الأعراب يطلبون منه، حتى ألجأوه إلى شجرة، فتعلق بها رداؤه ، فقال صلى اله عليه وسلم : « ردوا علي ردائي، فو الذي نفسي بيده لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً ، ثم أخذ وبرة من سنام بعير وقال: والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة». حسنه الالباني.

وفد هوازن :

وبعد أن تم توزيع الغنائم قدم وفد هوازن، يرأسه زهير بن صرد ، فأسلموا وبايعوا، وردّ المسلمون عليهم أهليهم وأبنائهم ودخل رسول الله- صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - مكة من الجعّرانة معتمراً وبعدما انتهى من عمرته عاد إلى المدينة وقد نصره الله جل وعلا وفتح مكة.

-عمرة الجعرانة :

ولما فرغ رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - من قسمة الغنائم أحرم للعمرة – وهي عمرة الجعرانة – فاعتمر، ثم قفل راجعاً إلى المدينة، فبلغها لست أو ثلاث بقين من ذي القعدة.

ثامناً- أحداث وغزوات وقعت في السنة التاسعة من الهجرة النبوية :

-حادثة هدم صنم بني طيء وإسلام عدي بن حاتم :

وفي شهر ربيع الآخر سنة 9هـ أرسل رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - علي بن أبي طالب في مائة وخمسين رجلاً على مائة بعير وخمسين فرساً ليهدم صنم بني طيء المعروف (**بالفُلْس**)، وكان مع علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- راية سوداء ولواء أبيض، فشن الغارة على محلة حاتم الطائي المعروف بالجود والكرم، فأصاب نعماً وشاء وسبيا، وفيها سفانة بنت حاتم الطائي، فلما جاءوا بها إلى المدينة من عليها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأطلقها بغير فدية، وأكرمها وأعطاها الراحلة، فذهبت إلى الشام، وكان أخوها عدي بن حاتم قد هرب إليها، فقالت له عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، ائته راغباً أو راهباً، فجاء عدي بغير أمان ولا كتاب، فلما كلم رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أسلم مكانه.

وبينا هو عند رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جاء رجل يشكو إليه الفاقة، ثم جاء آخر يشكو قطع السبيل، فقال: ياعدي ! هل رأيت الحيرة ؟ فلئن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله، فلا يجد أحداً يقبله منه، وقد رأى عدي خروج الظعينة، وحضر فتح كنوز كسرى.

وهذه الحادثة وهي، هدم صنم فُلْس لبنيطئ – من أهم ما وقع بعد فتح مكة وغزوة حنين

غـزوة تبـوك

كانت لمعركة مؤته سمعة سيئة للرومان، وقواتهم، فقد كان لنجاح المسلمين – وهم ثلاثة آلاف فقط – مقابل مائتي ألف من قوات الرومان أثر بالغ في نفوس القبائل العربية المجاورة للشام، وأخذت هذه القبائل تتطلع إلى الاستقلال، فرأى الرومان أن يقوموا بغزوة حاسمة يقضون بها على المسلمين في عقر دارهم، المدينة المنورة.

-الاستعداد للقاء الرومان :

وسمع رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - بتجمعهم واستعدادهم، فاستنفر المسلمين من كل مكان، وأعلن عن جهة الغزوة صراحة ، وليأخذ الناس عدتهم الكاملة، إذ كان الزمان زمان حر شديد، وكانت الشقة بعيدة، وكان الناس في عسر وجدب، وقد طابت الثمار، والظلال، فكانوا يحبون المقام فيها.

وحث رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - الموسرين على تجهيز المعسرين، فتقدم المسلمون بما لديهم، وأول من جاء بماله أبو بكر -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-جاء بكل ماله، وهو أربعة آلاف درهم ، فقال - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - : «هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟» فقال : أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ- بنصف ماله، وأنفق عثمان بن عفان -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ- كثيراً، يقال: عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير بإجلاسها وأقتابها، وأعطى خمسين فرساً، ويقال: أنه أعطى تسعمائة بعير ومائة فرس، وقد قال فيه النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .

وجاء عبدالرحمن بن عوف بمائتي أوقية، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة وغيرهم بأموال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم، كل على قدره، حتى أنفق بعضهم مداً أو مدين، لم يستطع غيره، وأرسلت النساء ما قدرن عليه من الحلي .

وجاءه- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقراء الصحابة يطلبون أن يحملهم، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92].

فجهزهم عثمان والعباس وغيرهما -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-.

وتكلم المنافقون، فلمزوا من أنفق الكثير، وسخروا ممن أنفق القليل، وسخروا من رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على جرأته على لقاء الرومان، ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يستهزئون بأهل الإيمان ويسخرون منهم وينكتون عليهم وقالوا » ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، وأكذب ألسنة، وأجبن عند اللقاء فلما سمع رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مقالتهم ووصل إليه خبرهم اعتذروا عن هذا الكلام القبيح وقالوا إنما قلناه على سبيل الهزل واللعب وليس على سبيل الجد والحقيقة فأنزل الله فيهم ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة: 65-66].

استعمل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على المدينة محمد بن مسلمة، وخلف علي بن أبي طالب على أهله، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق، وفرق الرايات على رجال، فأعطى الزبير راية المهاجرين، وأعطى أسيد بن حضير راية الأوس، والحباب بن المنذر راية الخزرج، وتحرك من المدينة يوم الخميس، ومعه ثلاثون ألف مقاتل، يريد تبوك، وكانت قلة شديدة في الظهر والزاد، فكان ثمانية عشر رجلاً يتعقبون بعيراً واحداً، وأكل الناس أوراق الشجر حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير ليشربوا ما في كرشه من الماء.

وبينما الجيش في طريقه إلى تبوك إذ لحقه علي بن أبي طالب، إذ سمع طعون المنافقين فيه فلم يصبر حتى خرج، فرده رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي .

ولما مر بتلك الديار – ديار ثمود- قال لهم أيضاً: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم، ثم قنع رأسه، وأسرع السير، حتى جاز الوادي .

وفي الطريق كان رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، جمع التقديم والتأخير، حتى نزل تبوك ، وعملت الروم بنزول رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في تبوك فخارت عزائمهم، ولم يجترؤا على اللقاء، فتفرقوا في داخل بلادهم، وبقي رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عشرين يوماً يرهب العدو، ويستقبل الوفود.

-العودة إلى المدينة وحادثة العقبة :

وبعد عشرين يوماً تحرك رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى المدينة، وقد استغرق الذهاب والعودة ثلاثين يوماً، فجملة ما غاب رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن المدينة خمسون يوماً.

وفي الطريق مر الجيش بعقبة، فأخذ الناس بطن الوادي، وسلك رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طريق العقبة، ولم يكن معه إلا عمار آخذاً بزمام الناقة، وحذيفة بن اليمان يسوقها، فتبعه اثنا عشر رجلاً من المنافقين يريدون اغتياله، واقتربوا منه جداً، وهم ملتثمون، فبعث رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إليهم حذيفة، ليضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فضربها، فأرعبهم الله، وأسرعوا بالفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حذيفة بن اليمان -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-بأسمائهم، وهو صاحب سر رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

-هدم مسجد الضرار:

وكان المنافقون قد بنوا بقباء مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وطلبوا من رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يصلي لهم فيه، وذلك عندما كان يستعد للخروج إلى تبوك، فقال: إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله، فلما كان في مرجعه من تبوك، ونزل بذي أوان، وليس بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم، نزل جبريل -- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بخبر المسجد، فبعث رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من أحرقه وهدمه.

الموقف من المخلفين :

وجاء المتخلفون من المنافقين يعتذرون ويحلفون، فقبل علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وجاء ثلاثة من المؤمنين الصادقين، وكانوا قد تخلفوا عنه، وهم كعب بن مالك، ومرارة

بن الربيع، وهلال بن أمية، فصدقوا ، ولم يعتذروا، فأمرهم أن ينتظروا حتى يقضي الله فيهم، وأمر المسلمين أن لا يكلموهم، فتغير لهم الناس، وتنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم أنفسهم، وأظلمت عليهم الدنيا، فلما تم على ذلك أربعون يوماً أمرهم أيضاً أن لا يقربوا نساءهم، حتى إذا تم خمسون يوماً أنزل الله توبتهم فقال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118].

فأنزل الله فيهم قرآن بقبول توبتهم يتلى إلى يوم القيامة وهذه نهاية الصدق مع الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: 119].

التوبة، ففرح المسلمون بقبول توبتهم ، وبشر رسول الله كعب وقال له : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»[1]

ونزلت آيات فضحت المنافقين، وكشف سرائر الكاذبين، وبشرت المؤمنين الصادقين، فالحمد لله رب العالمين .

كان رجوعه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن تبوك في شهر رجب سنة 9هـ ، وتوفي النجاشي أصحمة بن الأبجر ملك الحبشة في نفس الشهر، فصلى عليه رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صلاة الغائب في المدينة .

ثم توفيت ابنته أم كلثوم — -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- — في شهر شعبان سنة 9هـ فصلى عليها ودفنها بالبقيع، وحزن عليها حزناً شديداً، وقال لعثمان بن عفان -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-: « لو كانت عندي ثالثة لزوجتكها».

وفي ذي القعدة سنة 9هـ مات رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول، وطلب ابنه من النبي أن يستغفر له فاستغفر له رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وقد حاول عمر -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- أن

[1] رواه البخاري

يمنعه من الصلاة عليه فأبى، ثم نزل القرآن ينهى عن الصلاة على المنافقين قال تعالى: « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا و لا تقم على قبره» التوبة



كلمة حول الغزوات

كانت كلمة الحرب تعني في الجاهلية القتل والفتك والإحراق والتدمير والنهب والسلب وهتك الأعراض والإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل دون رحمة ولا هوادة، فلما جاء الإسلام غير هذا المعنى تغييراً تاماً، فجعل الحرب سبيلاً لنصرة المظلومين، وكبت الظالمين، ووسيلة لبسط الأمن والسلام على الأرض، وذريعة لإقامة العدل، وإنقاذ الضعفاء من براثن الأقوياء ولإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ولم تكن من شيمة العرب أن يخضعوا لأحد، مهما طال القتال، ومهما غلا الثمن، فقد دام القتال بين بكر وتغلب في حرب البسوس أربعين عاماً، وكانت ضحيتها حوالي سبعين ألف مقاتل، ولم يخضع أحدهما للآخر، ودامت حروب الأوس والخزرج أكثر من مائة عام، ولم يخضع أحدهما للآخر، فهذه هي شيمة العرب قبل الإسلام : مواصلة الحروب، وعدم الخضوع للعدو .

ثم جاء النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالإسلام فواجهته العرب بنفس الأسلوب، وجروه إلى ساحة القتال، ولكنه واجههم بأسلوب آخر حكيم، حتى فتح قلوبهم قبل أن يفتح بلادهم، وإذا قارنت حصائد غزواته ونتائجها بنتائج حروب الجاهلية ترى عجباً عجباً، فمجموع من قتل في جميع غزواته وحروبه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من المسلمين والمشركين واليهود والنصارى هم في حدود ألف قتيل فقط، والمدة التي استغرقتها هذه الغزوات لا تزيد على ثمانية أعوام، ولكنه في هذه الفترة القليلة، وبإهراق هذا القدر القليل من الدم أخضع الجزيرة العربية كلها تقريباً، وبسط الأمن والسلام في أقصى ربوعها وأرجائها .

أتـرى أن هـذا يمكـن بقـوة السـيف ؟ ولا سـيما بالنسـبة لأولئـك الـذين كـانوا يتفـانون في الحروب لأمور تافهة، ويضحون بالآلاف بعد الآلاف دون أن يتصور مـنهم الخضـوع ؟ كـلا، بل إنها نبوة ورحمة، ورسالة وحكمة، ودعوة ومعجزة، وفضل من الله ونعمة .



الوفـود والدعـاة والعمال

كان العرب ينتظرون نتيجة الصراع القائم بين قريش والنبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وكانوا يعتقدون أن الباطل لا يمكن أن يسيطر على المسجد الحرام بالقوة والفتح، ولم تكن قصة أصحاب الفيل عنهم ببعيدة، فلما أكرم الله رسوله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بإدخاله في المسجد الحرام، وبتسليطه على كفار مكة، ولم يبق عندهم أدنى شك في كونه رسولاً حقاً، فبدأت القبائل العربية تتوافد إليه تترى. تؤمن برسالته وتقر بطاعته، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.ومنهم أهل الطائف حيث بعث رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة الثقفي في رجال إلى الطائف ليهدموا اللات، فكسروها وهدموا بنيانها ، وخلال فترة قصيرة اتسعت رقعة الدولة الإسلامية من ساحل البحر الأحمر إلى ساحل الخليج العربي، ومن مناطق جنوب الأردن ومشارف الشام إلى سواحل اليمن وعمان، وأخذ النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ينظم أمور هذه البلاد الشاسعة، فيرسل الدعاة وينصب الولاة، ويبعث جباة الصدقات، ويوفر ما يحتاج إليه نظام العباد والبلاد من القضاة والعمال.



ظهور الأسود العنسي وقتله

وبينما استتب الأمن والإسلام في اليمن، وعمال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - متوافرون في جميع جهاته إذ ظهر الأسود العنسي من بلدة كهف حنان في سبعمائة مقاتل، يدعي لنفسه النبوة والأمر، وتقدم إلى صنعاء واحتلها، ثم تفاقم أمره، واشتدت فتنته، وقوي ملكه، حتى انحاز عمال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى أرض الأشعريين، وعامله المسلمون بالتقية، واستمر ذلك ثلاثة أشهر، أو أربعة أشهر، ثم احتال عليه فيروز الديلمي وزملاؤه من الفرس، وكانوا قد أسلموا، فقتله فيروز، واحتز رأسه، ورماه خارج الحصن فانهزم أصحابه، وظهر الإسلام وأهله، وتراجع نواب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى أعمالهم، وكتبوا بذلك إليه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وكان قتله قبل وفاة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بيوم وليلة، فأتاه الوحي، فأخبر به أصحابه، ثم وصل الكتاب في زمن أبي بكر الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

❁❁❁❁❁❁

تاسعاً: أهم الأحداث من السنة العاشرة للهجرة إلى وفاة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

- حجة الوداع:

لما تم إبلاغ الدعوة في أنحاء الجزيرة العربية، وأوجد الله طائفة من المؤمنين تكفل بحفظها وبإبلاغها إلى أقصى أرض الله، قدر الله أن يري رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثمار جهده المتواصل قبل أن ينتقل إلى الله، فأكرمه الله بحج بيته المكرم في ذي الحجة سنة 10هـ .

لما أراد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الحج أذن به في الناس، فاجتمع بالمدينة بشر كثير، فلما كان يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة وهو اليوم السادس والعشرون منه، ترجل وادهن، ولبس إزاره ورداءه، وانطلق من المدينة بعد صلاة الظهر، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي العصر، فصلاها بها ركعتين، ثم بات بها، فلما أصبح قال: أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل عمرة في حجة، وكان هذا إباحة للعمرة في أيام الحج، وكان أهل الجاهلية يرونها من أفجر الفجور.

ثم اغتسل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قبل الظهر، وتطيب في رأسه وبدنه بطيب فيه مسك. ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، وأهل بالحج والعمرة في مصلاه، وقرن بينهما، فقال: «اللهم لبيك عمرة وحجاً، ثم لبى: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك». وكان أحياناً يقول: « لبيك إله الحق » .

ثم خرج من المصلى فركب القصواء، وأهل مرة أخرى، فلما استوت به بالبيداء أهل أيضاً، وأشعر هديه بعد الصلاة وقلدها بذي الحليفة.

ثم واصل سيره حتى دنا من مكة وأدى بقية مناسك الحج وهو يقول للناس« لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»، وأتى وادي عرنة وقد اجتمع

الناس حوله فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وتشهد، وأوصى بتقوى الله، ثم قال فيما قال: « أيها الناس ! اسمعوا قولي. فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمور الجاهلية موضوع تحت قدمي، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - وكان مسترضعاً في بني سعد فقتله هذيل - وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد»!

وقد بين في هذه الخطبة عدة أمور أخرى، فلما فرغ منها نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: 3].

فكان يوم نعمة وسعادة وشكر وهي آخر ما نزل من القرآن، ولما أتم نسكه ركب القصواء ناقته وتوجه للمدينة ، ولما قرب منها ولاحت له معالمها كبر ثلاثاً ثم قال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ».

مرض النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ووفاته:

اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً، وعارضه جبريل القرآن مرتين، فقال لا بنته فاطمة: «لا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي». وودع معاذاً إلى اليمن فأوصاه، ثم قال: « يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا».

وقال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في حجة الوداع مراراً: « لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، ولعلي لا أحج بعد عامي هذا ». وكذلك نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . .﴾ [المائدة: 3].

سورة المائدة، ونزول سورة النصر كأنها علامات توديع أمته واقتراب أجله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ولذلك سميت حجته بحجة الوداع.

وفي أوائل شهر صفر سنة 11هـ خرج - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى أحد، فصلى على أهل أحد، ثم انصرف إلى المنبر فقال: « أنا فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها »،أي الدنيا.

-بداية مرضه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

وفي يوم الاثنين الأخير من شهر صفر شهد رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جنازة في البقيع. قالت عائشة : رجع من البقيع وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه، فقال :« بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ».

كان هذا بداية مرضه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو مع ذلك يدور على نسائه، حتى اشتد به المرض، وهو في بيت ميمونة فأخذ يسأل: أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء، فخرج يمشي بين الفضل بن عباس، وعلي بن أبي طالب، وتخط قدماه بالأرض، حتى انتقل إلى بيت عائشة .

-عهده ووصيته :

قالت عائشة -رَضِيَٱللَّهُعَنهَا- : لما دخل بيتي، واشتد به وجعه قال: « هريقوا علي من سبع قرب، لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس » فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- ، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج إلى الناس، فصلى بهم وخطبهم .

وقال فيما قال:« إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك»، وقال:« لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وقال :«لا تتخذوا قبري وثناً يعبد ».

وعرض نفسه للقصاص لكل من له عليه مظلمة، وأوصى بالأنصار خيراً، ثم قال: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده»، قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر، وقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا .

ثم أثنى رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- على أبي بكر، وأمر بسد الأبواب الشارعة في المسجد، إلا باب أبي بكر .

وكان ذلك يوم الأربعاء، فلما كان يوم الخميس وقد أشتد به الوجع، قال :« هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده » ، فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله، فاختلفوا، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله-صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- « قوموا عني » .

وأوصى في ذلك اليوم بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وبإجاز الوفود بنحو ما كان يجيزهم، وأكد لهم أمر الصلاة، وما ملكت أيمانهم، وقال:« تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي».

-استخلاف أبي بكر الصديق -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-على الصلاة :

وكان النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع شدة مرضه يصلي بالناس، فلما كان ذلك اليوم – يوم الخميس – وحان وقت صلاة العشاء اغتسل-صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في مخضب ليتخفف، ثم ذهب ليقوم، فأغمي عليه، ثم أفاق فاغتسل ثانياً، ثم ذهب ليقوم فأغمي عليه، ثم أفاق فاغتسل ثالثاً فلما ذهب ليقوم أغمي عليه، فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام، وجملة الصلوات التي صلاها أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة .

ويوم السبت أو -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الأحد وجد رسول الله-صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في نفسه خفة فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فأجلساه إلى يساره، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والناس يقتدون بأبي بكر، يسمعهم التكبير.

-تصدقه -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بما لديه :

ويوم الأحد أعتق النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- غلمانه، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب المسلمين سلاحه، وجاء الليل فأرسلت عائشة – -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- – بمصباحها إلى امرأة وقالت: أقطري لنا في مصباحنا من عكتك السمن، وكانت درعه -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير .

-آخر أيامه -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- :

ولما أصبح يوم الاثنين – وكان يوم نوبة عائشة – وقام أبو بكر يصلي بالناس صلاة الفجر كشف رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه، وظن أنه -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمّ المسلمون أن

يفتتنوا في صلاتهم، فرحاً برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

وفي هذا اليوم – أو في هذا الأسبوع – دعا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فاطمة فسارها بشيء فبكت، ثم سارها بشيء فضحكت، وسألتها عائشة عن ذلك فكتمت، حتى توفي رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأخبرتها أنه قال لها في الأولى: إنه يموت في مرضه هذا فبكيت، وقال لها في الثانية: إنها أول أهله يتبعه فضحكت، وبشرها أيضاً أنها سيدة نساء العالمين.

ورأت فاطمة ما برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من شدة الكرب، فقالت: « واكرب أباه » ، فقال : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم »، ودعا الحسن والحسين فقبلهما، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

وطفق الوجع يشتد ويزيد، وانتقض السم الذي أكله بخيبر، فأخذ يحس بشدة ألمه، وكان قد طرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد – يحذر ما صنعوا – لا يبقين دينان بأرض العرب»، وكان هذا من آخر ما تكلم وأوصى به الناس، وكرر مراراً: « الصلاة ، الصلاة ، وما ملكت أيمانكم ».

-الاحتضار والانتقال للرفيق الأعلى :

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- إلى صدرها بين سحرها ونحرها ، وجاء أخوها عبدالرحمن بسواك من جريدة رطبة، فأخذ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ينظر إلى السواك، ففهمت عائشة أنه يريدة، فسألته فأشار برأسه: أن نعم، فأخذته ومضغته حتى لينته، فاستاك به رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كأحسن ما كان يستاك، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، ويمسح به وجهه، ويقول: لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات .

ثم رفع يديه أو إصبعه وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة فسمعته يقول: « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى ».

وكرر الكلمة الأخيرة ثلاثاً، وفاضت روحه، ومالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى، وذلك يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة 11هـ حين اشتد الضحى ، وقد تم له ثلاث وستون سنة - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

-حيرة الصحابة وموقف أبي بكر :

وتسرب الخبر بين الصحابة خلال لحظات، فأظلمت عليهم الدنيا، وكادوا يفقدون وعيهم، فلم يكن يوم أحسن ولا أضوء من يوم دخل فيه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المدينة، ولم يكن يوم أظلم ولا أقبح من يوم مات فيه، وكان لهم ضجيج كضجيج الحجاج من البكاء.

وقام عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في المسجد يقول: إن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يمت ولا يموت حتى يفني الله المنافقين، وأخذ يتوعد من يقول إنه مات، والصحابة حوله في المسجد حائرون مندهشون .

وكان أبو بكر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-قد خرج إلى مسكنه بالسنح حين رأى الخفة في مرضه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صباحاً، فلما توفي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أقبل أبو بكر على دابته حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فقصد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف وجهه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، ولا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها .

ثم خرج فقال: اجلس يا عمر، فأبى أن يجلس، فتركه وجاء إلى المنبر وقام بجنبه، وترك الناس عمر، وأقبلوا إليه، فتشهد وقال: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله – تعالى - : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: 144].

قال ابن عباس: فو الله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية، حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .

قال عمر: فو الله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق، فعقرت، حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض، وعرفت أنه قد مات.

-اختيار أبي بكر الصديق لخلافته - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - :

اجتمع الصحابة المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة واتفقوا على تولية أبي بكر الصديق -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-بالخلافة لمعرفتهم بتفضيل النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - له وتقديمه في أكثر ما مناسبة ، فاجتمعوا على خلافته وبيعته في السقيفة وكان محل إجماع بينهم -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ-

-التجهيز ودفن الجسد الشريف :

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله- صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ولم يجردوه من ثيابه، وقام بغسله العباس، وعلي، والفضل وقثم ابنا العباس، وشقران مولى رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولى، وكان العباس وابناهما يقلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره.

وقد غسلوه ثلاث غسلات بماء وسدر، وكان الماء من بئر لسعد بن خيثمة بقباء، يقال لها الغرس، وكان - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - بشرب منها .

وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف، وليس فيها قميص ولا عمامة، أدرج فيها إدراجاً .

وحفر أبو طلحة قبره في الموضع الذي توفي فيه، وجعل القبر لحداً، ثم وضع سريره على شفير القبر، ودخل الناس ارسالاً عشرة فعشرة، ويصلون عليه أفذاذاً، لا يؤمهم أحد، وأول من صلى عليه عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم النساء، ثم الصبيان.

وانتهى في ذلك يوم الثلاثاء ومعظم ليلة الأربعاء، ثم أنزلوه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في القبر ودفنوه في أواخر الليل - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

أسئلة

س1 - ما أهم السرايا والبعوث التي أرسلها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -- في السنة الأولى للهجرة ؟

س2 - تحدث عن مقدمات ونتائج غزوة بدر الكبرى .

س3 - تكلم باختصار عن غزوة أحد ، وأهم الدروس المستفادة منها .

س4 -اكتب باختصار عن :

أ-غزوة بني النضير ، وأهم نتائجها .

ب-غزوة الأحزاب.

ج-صلح الحديبية.

د-فتح مكة.

س5-ناقش غزوة بني المصطلق و ما ترتّب عنها من أحداث ونتائج .

س6 -تحدث عن غزوة تبوك وما فيها من عبر ودروس

س9 -تناول أهم الأحداث من مرض النبي صلى الله عليه وسلم حتى وفاته .

س10 -تحدث عن موقف أبي بكر الصديق عقب وفاة النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(في معرفة أزواجه وأولاده وشمائله)

أزواجه أمهات المؤمنين وأولاده

وكان له - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في مختلف مراحل حياته إحدى عشرة امرأة أو اثنتا عشرة امرأة ، واجتمع منهن تسع في آخر حياته، وأما الاثنتان أو الثلاث فقد وافتهن الوفاة والنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حي، وفيما يلي ذكر موجز لهن:

1- أم المؤمنين خديجة بنت خويلد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- :

تقدم أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تزوجها وهي في سن الأربعين، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وجميع أولاده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - منها سوى إبراهيم، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى مدة حياتها، توفيت بمكة في رمضان قرابة سنة عشر من النبوة، ودفنت بالحجون. ولها 65 سنة .

2- أم المؤمنين سودة بنت زمعة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-:

كانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو، فأسلما وهاجرا إلى الحبشة، ثم رجعا فمات عنها، فتزوجها النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وذلك في شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بنحو شهر، وتوفيت بالمدينة في شوال سنة 54 هـ .

3- أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق - -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- :

تزوجها النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة بعد سودة بسنة، وهي بنت ست سنين، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر وهي بنت تسع سنين، ولم

يتزوج بكراً غيرها، وهي أفقه نساء الأمة، وفضلها على النساء كفضل الثريد على السائر الطعام، وتوفيت في 17 رمضان سنه 57هـ أو 58 هـ ودفنت بالبقيع.

4- أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-:

كانت تحت خنيس بن حذافة السهمي، فتوفي عنها بين بدر وأحد لجرح أصابه في بدر، ثم انتقض عليه فيما بعد، فلما حلت تزوجها النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في شعبان سنة 3هـ، توفيت بالمدينة في شعبان سنة 45هـ ولها ستون سنة، ودفنت بالبقيع .

5- أم المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- :

كانت تحت عبيدة بن الحارث، فقتل عنها يوم بدر، فتزوجها رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في رمضان سنة 3هـ . وكانت تحت عبدالله بن جحش فقتل عنها يوم أحد، فتزوجها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في سنة 4هـ كانت تسمى في الجاهلية بأم المساكين، لإطعامها إياهم، توفيت في آخر ربيع الآخر سنة 4هـ بعد الزواج به - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بثمانية أشهر أو بنحو ثلاثة أشهر، فصلى عليها النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ودفنت بالبقيع .

6- أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-:

كانت تحت أبي سلمة، وله منها أولاد، فتوفي عنها في جمادي الآخرة سنة 4هـ فتزوجها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في ليال بقين من شوال سنة 4هـ كانت من أفقه النساء وأعقلهن، توفيت سنة 59هـ وقيل 62هـ ودفنت بالبقيع ، ولها 84 سنة .

7- أم المؤمنين زينب بنت جحش بن رئاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- :

وهي ابنة أميمة بنت عبد المطلب: عمة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تزوجت بزيد بن حارثة، فلم يوفق بينهما، حتى طلقها زيد، وكان قد تبناه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيقال له زيد بن محمد، كما تقدم، وكان أهل الجاهلية يرون تحريم زوجة المتبني على أبيه المتبني مثل تحريم زوجة الابن

الحقيقي، فلما انقضت عدة زينب من زيد زوجها الله — - -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ — بالنبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - من فوق سبع سماوات، وأبطل التبني، وذلك في ذي القعدة سنة 5هـ وقيل: في سنة 4هـ وكانت من أعبد النساء وأعظمهن صدقة. توفيت سنة 20هـ ولها 53 سنة. وكانت أول أمهات المؤمنين وفاة بعد رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - ، صلى عليها عمر بن الخطاب -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- ودفنت بالبقيع .

8- أم المؤمنين جويرية بنت الحارث (سيد بني المصطلق) -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا-:

سبيت في غزوة بني المصطلق في شعبان سنة 6هـ وقيل: سنة 5هـ فوقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها فقضى رسول الله -- صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - - كتابتها ، فأعتقها وتزوجها ، فأعتق المسلمون مائة من أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا : أصهار رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - فكانت أعظم النساء بركة على قومها، وتوفيت في ربيع الأول سنة 56 هـ وقيل :55 هـ ولها 65 سنة .

9- أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- :

كانت تحت عبيد الله بن جحش فولدت له حبيبة فكنيت بها، وهاجرت معه إلى الحبشة، فتنصر عبيد الله، وتوفي مرتداً، وثبتت هي على الإسلام، فلما بعث رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - عمرو بن أميه الضمري بكتابه إلى النجاشي أمره أن يزوجها النبي - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - فزوجها له النجاشي، وأصدقها عنه ، وبعثها مع شرحبيل بن حسنة، فابتنى بها رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - بعد رجوعه من خيبر في صفر أو ربيع الأول سنة 7هـ توفيت سنة 42هـ أو 44هـ أو 50 هـ .

10-أم المؤمنين صفية بن حيي بن أخطب —رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- :

هي بنت سيد بني النضير، من بني إسرائيل، من سلالة هارون -- عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، سبيت في خيبر، فاصطفاها رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - لنفسه ، وعرض عليها الإسلام فأسلمت،

فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة 7هـ وابتنى بها بسد الصبهاء على بعد 12 ميلاً من خيبر في طريقه إلى المدينة، توفيت سنة 50هـ وقيل: 52هـ وقيل 36هـ ودفنت بالبقيع .

11-أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية -رَضِيَٱللَّهُعَنهَا-:

تزوجها رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – في ذي القعدة سنة 7هـ في عمرة القضاء بعد أن حل منها، وبنى بها بسرف على بعد تسعة أميال من مكة، وقد توفيت بسرف سنة 61هـ، وقيل: 63هـ وقيل 38هـ ودفنت هناك، وهي آخر نسائه موتاً وتزويجاً.

فهذه إحدى عشرة امرأة هُنَّ أمهات المؤمنين وأزواج رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – بالاتفاق، واختلف في امرأة واحدة وهي ريحانة بنت زيد، أنها كانت من أزواجه – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – أو من سراريه، وهي من بني النضير، وكانت عند رجل من بني قريظة، فوقعت في غزوة بني قريظة في السبايا، فاصطفاها النبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – لنفسه، فيقال: إنه أعتقها وتزوجها في المحرم سنة 6هـ فهي من أمهات المؤمنين، ويقال : إنه – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – لم يعتقها، بل كان يأتيها بملك اليمين، فهي من سراريه، توفيت أثناء رجوعه – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – من حجة الوداع ، فدفنها بالبقيع .

وكانت له – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – سوى هؤلاء النسوة سرية واحدة، وهي مارية القبطية، وأهداها له المقوقس في جملة ما أهداه حينما رد على كتابه – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – ، وكانت من بنات الملوك، فخصها النبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – لنفسه، وقد ولدت له إبراهيم، توفيت سنة 16هـ ويقال : في المحرم سنة 15هـ ودفنت بالبقيع.

أولاده - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ - :

تقدم أن جميع أولاده – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – من خديجة إلا إبراهيم. وهم :

1 – القاسم: وهو أكبر ولد رسول الله – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – ، وبه كان يكنى، وعاش حتى مشى، ثم توفي وهو نحو سنتين.

2- زينب: وهي أكبر بناته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تلك أفضل بناتي. ولدت بعد القاسم، وتزوجها أبو العاص بن الربيع، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، ولدت زينب ابناً اسمه علي، وبنتاً اسمها أمامه، وهي التي كان رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يحملها في الصلاة، توفيت زينب في أوائل سنة ثمان بالمدينة.

3- رقية: تزوجها عثمان بن عفان - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ماتت رقية ورسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في بدر، وجاء زيد بن حارثة بشيراً إلى المدينة، فوجدهم قد سووا التراب على قبرها.

4- أم كلثوم: زوجها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عثمان بن عفان- رضي الله عنه- بعد وفاة رقية مرجعه من بدر، ولم تلد له شيئاً، توفيت في شعبان سنة 6هـ ودفنت بالبقيع .

5- فاطمة: وهي أصغر بناته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وأحبهن إليه، وهي سيدة نساء أهل الجنة، وتزوجها علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-بعد بدر، فولدت له ابنين: حسناً وحسيناً، وبنتين: زينب وأم كلثوم، وأم كلثوم هذه تزوجها عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فولدت له زيداً، وتوفيت فاطمة — -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- — بعد النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بستة أشهر .

[هؤلاء الخمسة المذكورين من أولاده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولدوا قبل أن يكرمه الله بالنبوة والرسالة .

6- عبدالله : يقال إنه ولد في الإسلام، ويقال: بل قبل ذلك، وتوفي وهو صغير، وكان آخر أولاد النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من خديجة .

7- إبراهيم: ولد بالمدينة من مارية القبطية، في جمادي الأولى أو جمادي الآخرة سنة 9هـ وتوفي 29 شوال سنة 10هـ يوم كسفت الشمس بالمدينة وهو رضيع، ابن ستة عشراً أو ثمانية عشر شهراً ، ودفن بالبقيع.

شمائله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

من المعلوم أن التأسي به - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والاقتداء فرع عن العلم بشمائله وخصاله وخلاله ؛ إذ لا يتأتى اقتداء به ، ولا اتباع لنهجه ، ولا لزوم لهديه إلا بمعرفة سيرته وشمائله وخصاله وخلاله العظيمة - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ولهذا كان متأكدا على كل مسلم أن يعنى بدراسة سيرة هذا الرسول الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وشمائله عناية مقدمة على العناية بغيره من البشر ؛ لأنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أزكى البشرية ، وخير العباد ، وقدوة العاملين ، وسيد ولد آدم أجمعين.

و « **الشمائل** » : المراد بها خصال الإنسان ، وأوصافه وخلاله ، وأخلاقه ، وآدابه ونحو ذلك ، يقال : فلان حسن الشمائل ، أي حسن الأخلاق ، ويقال كريم الشمائل ، أي كريم الأخلاق ، ولهذا سمي الإمام الترمذي -رَحِمَهُ اللَّهُ- وغيره من أهل العلم أوصاف النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأخلاقه وآدابه وما يتعلق به بـ « الشمائل » .

وفي دراسة شمائله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ومعرفة خصاله وخلاله فوائد عظيمة ، منها :

أولاً : إن من واجبات أهل الإيمان : الإيمان به - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ولا يكون ذلك إلا بمعرفته ؛ فكلما زادت المعرفة به - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ازداد الإيمان به ، وازداد الاتباع له ؛ إذ أن من موجبات الإيمان به معرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية ، والأوصاف الكاملة ؛ فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة والدين الحق ؛ إذ إن أوصافه الحميدة ، وشمائله الجميلة ، وأقواله الصادقة النافعة ، وأفعاله الرشيدة أكبر داع للإيمان به ؛ ولهذا حث الله - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على تدبر أحوال الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأوصافه

الداعيــة للإيــمان بــه فقــال : ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: 46].

ثانياً : إن محبته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فريضة افترضها الله – –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده ؛ بل إنه يجب أن تقدم محبته على محبة الوالد والولد والناس أجمعين ؛ بل على النفس ، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به ، ولا ريب أن معرفته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ومعرفة شمائله وخصاله تزيد القلب حبا له وتعظيما وإجلالا ، ومعرفة لقدره العظيم ومكانته العلية ؛ فإن « العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه ، واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حبه له ، وتزايد شوقه إليه [جلاء الأفهام لابن القيم ص 525] ؛ وعليه فكم للعناية بمناقبه العظيمة وشمائله الكريمة وصفاته الحميدة وأخلاقه وآدابه وهديه وسننه وسيرته من الأثر البالغ في ازدياد محبته في القلوب وقوتها .

ثالثاً : إن الله – –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعله قدوة للعباد وأسوة للناس ، وأمر باتباعه والسير على منهاجه ، بل هو الإمام الأعظم ، والقدوة الأكمل ، قال تعالى : ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: 21]، وقال تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: 7].

وقال تعالى : ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: 31].

ومتابعته – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – والائتساء به فرع عن معرفته ومعرفة خصاله وخلاله وشمائله.

رابعاً : إن الله قد جعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ففي « البخاري » من حديث أبي هريرة أن النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: 6]... فهو أولى بهم من أنفسهم ؛ لأنه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بذل لهم من النصح والشفقه والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم ،فكان بذلك أعظم الخلق منة عليهم من كل أحد ؛ إذ لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ، ولا اندفع

عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه ؛ فلذا وجب عليهم أن يعرفوا له مكانته العظيمة ومنزلته العلية ، وأن يعرفوا من شمائله وخلاله ما يزيدهم حبا له ، واتباعا لنهجه ، ووفاء بحقه .

خامساً : إن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أقسم في القرآن الكريم على كمال خلق النبي – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وعظمه ، فقال تعالى : ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 1-4] ، وهذا شرف عظيم لعبد الله مصطفاه – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حيث نعته جل وعلا بذلك ، ولما سئلت عائشة – رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا – عن خلقه – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قالت : « كان خلقه القرآن »[1] . فهذه كانت أخلاق رسول الله – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – المقتبسة من مشكاة القرآن ؛ فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلا له وتبيينا ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن ، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن ، ورغبته فيما رغّب فيه ، وزهده فيما زهّد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبته لما أحبه ، وسعيه في تنفيذ أوامره وتبلبغه والجهاد في إقامته ؛ فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : « كان خلقه القرآن » وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى فاكتفى به واشتفى [التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص531] . وهكذا الشأن في كل من وفق لدراسة الشمائل والعناية بها يحصل له هذا الاكتفاء والاشتفاء.

سادساً : إن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر العباد بالصلاة والسلام عليه اقتداء به وبملائكته ، وجزاء له على بعض حقوقه عليهم فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

وكلما ازداد المرء بصيرة بشمائله وقوة في معرفته ازدادت صلاته عليه وحسنت »؛ ولهذا كانت صلاة أهل العلم العارفين بسنته وهديه المتبعين له على خلاف صلاة العوام عليه ، الذين

---

[1] أخرجه مسلم وأحمد

حظهم منها إزعاج أعضائهم بها ورفع أصواتهم ، وأما أتباعه العارفون بسنته العالمون بما جاء به ، فصلاتهم عليه نوع آخر ؛ فكلما ازدادوا فيما جاء به معرفة ازدادوا له محبة ومعرفة بحقيقة الصلاة المطلوبة له من الله تعالى [كما في جلاء الأفهام لابن القيم ص 531].

سابعاً : إن شمائله وسيرته العطرة - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تعد منهج حياة لكل مسلم يرجو لنفسه الخير والرفعة والحياة الكريمة في الدنيا والآخرة ، يربي عليها الأبناء وينشأ عليها الأجيال ، وإذا حاد النشء عنها حصل لهم الضياع كما هو حال كثير من النشء أصلحهم الله ، فما أحوج هؤلاء إلى العودة الصادقة إلى هذه السيرة العطرة والشمائل المباركة ؛ ليقفوا على هذا المعين المبارك والمنهل العذب الذي من وقف عليه واهتدى بهداه تحقق له تمام الصلاح والفلاح والسعادة بإذن الله ، « فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته ، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته ، فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة ، و لمخالفة الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة [زاد المعاد لابن القيم 1/ 36] .

ثامناً : إن معرفته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من أعظم الأمور التي تزيد الإيمان ؛ بل إنها من أعظم الأمور التي توجب الإيمان في حق من لم يؤمن ، وزيادة الإيمان في حق من آمن ، كما قال - - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: 69].

سورة المؤمنون ، أي أن معرفته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - موجبة وسبب عظيم لحصول الإيمان في حق من لم يؤمن ، ومن الناس في زمانه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من ظل ردحا من الزمان ليس على وجه الأرض أبغض إليه منه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بسبب الدعايات الكاذبة والإشاعات الآثمة ، فما أن رأى محياه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ووقف على سيرته عن كثب ، ورأى أدبه ومعاملته إلا وقد تحول من ساعته وليس على وجه الأرض أحد أحب إليه منه .

ومن يطالع السيرة النبوية يجد في قصص كثير ممن أسلم أن سبب إسلامهم هو الوقوف على شمائله وأخلاقه وآدابة - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهذا معنى قول الله - - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: 159].

إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة والثمار الجليلة التي يجنيها من يكرمه الله - -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويوفقه لدراسة شمائل النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . وعليه فمن أراد أكمل الآداب وأطيب الأخلاق فلن يجدها إلا في خلقه وهديه وأدبه - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وهذا مما يتطلب مزيد عناية بدراسة شمائله وأخلاقه وآدابه صلوات الله وسلامه عليه



شمائله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الخَلْقية والخُلقية

(الصفات والأخلاق)

كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يمتاز من جمال خَلْقه وكمال خُلُقه بما لا يحيط بوصفه البيان، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله، والرجال تفانوا في حياطته وإكباره، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظُفْر، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذي يحبب عادة لم يرزق بمثلها بشر. وفيما يلي نورد ملخص الروايات في بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة .

-جمال الخَلْق:

قال علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- - وهو ينعت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لم يكن بالطويل المُمَغَّطِ، ولا القصير المتردد، وكان رَبْعَة من القوم، ولم يكن بالجَعْد القَطِطِ، ولا بالسَّبْط، رَجِلاً، ولم يكن بالمُطَهَّم، ولا بالمُكَلْثَم، وكان في الوجه تدوير، وكان أبيض مُشْرَبًا، أدْعَج العينين، أهْدَب الأشْفَار، جَلِيل المُشَاش والكَتَدِ، دقيق المسْرُبَة، أجْرَد، شَثْنُ الكفين والقدمين، إذا مشي تَقَلّع كأنما يمشي في صَبَب، وإذا التفت التفت معاً، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لَهْجَة، وأوفي الناس ذمة، وألينهم عَريكَة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله، - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وفي رواية عنه : أنه كان ضَخْم الرأس، ضخم الكَرَادِيس، طويل المَسْرُبَة، إذا مشي تَكَفَّأ تَكَفِّيًا كأنما يَنْحَطُّ من صَبَب .

وقال جابر بن سَمُرة : كان ضَلِيع الفم، أشْكَل العينين، مَنْهُوس العقبين .

وقال أبو الطفيل : كان أبيض، مَلِيح الوجه، مُقَصَّدًا .

وقال أنس بن مالك : كان بِسْطَ الكفين . وقال : كان أزْهَر اللون، ليس بأبيض أمْهَقَ، ولا آدَم، قُبض وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء .

وقال : إنما كان شيء ـ أي من الشيب ـ في صُدْغَيْه، وفي رواية : وفي الرأس نَبْذٌ .

وقال أبو جُحَيْفة : رأيت بياضاً تحت شفته السفلي، العَنْفَقَة .

وقال عبد الله بن بُسْر : كان في عنفقته شعرات بيض .

وقال البراء : كان مَرْبُوعًا، بَعِيدَ ما بين المَنْكِبَيْن، له شَعْر يبلغ شَحْمَة أذنيه، رأيته في حُلَّة حمراء، لم أر شيئاً قط أحسن منه .

وكان يُسْدِل شعره أولاً لحبه موافقة أهل الكتاب، ثم فَرَق رأسه بعد .

قال البراء : كان أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خُلُقًا .

وسئل : أكان وجه النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مثل السيف ؟ قال : لا بل مثل القمر . وفي رواية : كان وجهه مستديراً .

وقالت الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ : لو رأيته رأيت الشمس طالعة .

وقال جابر بن سَمُرَة : رأيته في ليلة إضْحِيَانٍ، فجعلت أنظر إلى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وإلى القمر ـ وعليه حلة حمراء ـ فإذا هو أحسن عندي من القمر .

وقال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، كأنما الأرض تُطْوَي له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث .

وقال كعب بن مالك : كان إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر .

وعرق مرة وهو عند عائشة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- يَخْصِفُ نعلاً، وهي تغزل غزلاً، فجعلت تبرق أسارير وجهه، فلما رأته بُهِتَتْ وقالت : والله لو رآك أبو كَبِير الهُذَلي لعلم أنك أحق بشعره من غيرك :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ** برقت كبرق العارض المتهلل

وكان أبو بكر إذا رآه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو ** كضوء البدر زايله الظلام

وكان عمر ينشد قول زهير في هَرِم بن سِنَان :

لو كنت من شيء سوى البشر ** كنت المضيء لليلة البدر

ثم يقول : كذلك كان رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وكان إذا غضب احمر وجهه، حتى كأنما فقئ في وجنتيه حَبُّ الرمان .

وقال جابر بن سَمُرَة : كان في ساقيه حُمُوشة، وكان لا يضحك إلا تَبَسُّماً ، وكنت إذا نظرت إليه قلت : أَكْحَل العينين، وليس بأكحل .

وقال عمر بن الخطاب : وكان من أحسن الناس ثَغْراً .

قال ابن عباس : كان أَفْلَجَ الثنيتين، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه .

وأما عُنُقه فكأنه جِيدُ دُمْيَةٍ في صفاء الفضة، وكان في أَشْفَاره عَطَف، وفي لحيته كثافة، وكان واسع الجبين، أَزَجّ الحواجب في غير قرن بينهما، أَقْنَي العِرْنِين، سَهْل الخَدَّيْن، من لُبَّتِه إلى سُرَّتِه شعر يجري كالقضيب، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، أَشْعَر الذراعين والمنكبين، سَوَاءُ البطن والصدر، مَسِيح الصدر عريضه، طويل الزَّنْد، رَحْب الراحة، سَبْط القَصَب، خُمْصَان الأَخْمَصَيْن، سَائِل الأطراف، إذا زَالَ زَالَ قَلْعاً، يخطو تَكَفِّياً ويمشي هَوْناً .

وقال أنس : ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ولا شممت ريحاً قط أو عَرْفاً قط، وفي رواية : ما شممت عنبراً قط ولا مِسْكاً ولا شيئاً أطيب من ريح أو عرف رسول الله - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وقال أبو جُحَيْفة : أخذت بيده، فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك .

وقال جابر بن سمرة ، وكان صبيا : مسح خَدِّي فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جُونَةِ عَطَّار .

وقال أنس : كأن عرقه اللؤلؤ ، وقالت أم سليم : هو من أطيب الطيب .

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده، وكان عند نَاغِض كتفه اليسري جُمْعاً، عليه خِيَلان كأمثال الثَّآلِيل .

(كمال النفس ومكارم الأخلاق)

كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - **يمتاز بفصاحة اللسان،** وبلاغة القول، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلامة طبع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي .

وكان الحلم والاحتمال، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، صفاتٌ أدبه الله بها، وكل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه هَفْوَة، ولكنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يزد مع كثرة الأذي إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما، وقالت عائشة : ما خير رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ، وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضاً .

وكان من صفة الجود والكرم على مالا يقادر قدره، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، قال ابن عباس : كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين

يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أجود بالخير من الريح المرسلة . وقال جابر : ما سئل شيئاً قط فقال : لا .

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يجهل، كان أشجع الناس، حضر المواقف الصعبة، وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فَرَّة، وحفظت عنه جولة سواه، قال علي : كنا إذا حمي البأس واحمرت الحَدَقُ، اتقينا برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، قال أنس : فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي، في عنقه السيف، وهو يقول : (لم تُرَاعوا، لم تُرَاعوا) .

وكان أشد الناس حياء وإغضاء، قال أبو سعيد الخدري : كان أشد حياء من العذراء في خِدْرها، وإذا كره شيئاً عرف في وجهة . وكان لا يثبت نظره في وجه أحد، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلُّ نظره الملاحظة، لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس، وكان لا يسمي رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه، بل يقول . (ما بال أقوام يصنعون كذا) .

وكان أحق الناس بقول الفرزدق :

يُغْضِي حياءً ويُغْضِي من مَهَابَته ** فلا يُكَلَّم إلا حِين يَبْتَسِمُ

وكان أعدل الناس، وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك مجاوروه وأعداؤه، وكان يسمي قبل نبوته الأمين، ويُتَحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام، روي الترمذي عن على أن أبا جهل قال له : إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: 33].

وسأل هرقل أبا سفيان، هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وكان أشد الناس تواضعاً، وأبعدهم عن الكبر، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، وكان يعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس في أصحابه كأحدهم، قالت عائشة : كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته، وكان بشراً من البشر يَفْلِي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه .

وكان أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأعظمهم شفقة ورأفة ورحمة بالناس، أحسن الناس عشرة وأدباً، وأبسط الناس خلقاً، أبعد الناس من سوء الأخلاق، لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا لعاناً، ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، وكان لا يدع أحدا يمشي خلفه، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس، ويخدم من خَدَمَه، ولم يقل لخادمه أف قط، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه، وكان يحب المساكين ويجالسهم، ويشهد جنائزهم، ولا يحقر فقيراً لفقره .

وكان يمسك لسانه إلا عما يعنيه، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر، غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره ، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة ، كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن ، لا يميز لنفسه مكاناً ، إذا انتهي إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق متقاربين، يتفاضلون عنده بالتقوي، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم ، لا تخشى فلتاته ، يتعاطفون بالتقوي، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب .

كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صَخَّاب، ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث : لا يذم أحداً، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، يقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ .

وقال خارجة بن زيد : كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه، وكان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عمن تكلم بغير جميل، كان ضحكه تبسماً، وكلامه فصلا لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ،فصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

أسئلة

س1 –اذكر زوجات النبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – أمهات المؤمنين.

س2 –قم بإعداد جدولاً زمنياً يحدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده بالترتيب.

س2 –اكتب ما تعرفه عن شمائل النبي – صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ – .

❁❁❁❁❁❁

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

صحيح البخاري

صحيح مسلم

سنن أبي داود

سنن الترمذي

سنن النسائي

سنن ابن ماجه

مسند أحمد بن حنبل

السيرة النبوية لابن كثير

البداية والنهاية لابن كثير

السيرة النبوية لابن هشام

زاد المعاد لابن القيم

شمائل النبي صلى الله عليه وسلم للترمذي

روضة الأنوار للمباركفوري.

الفهرس